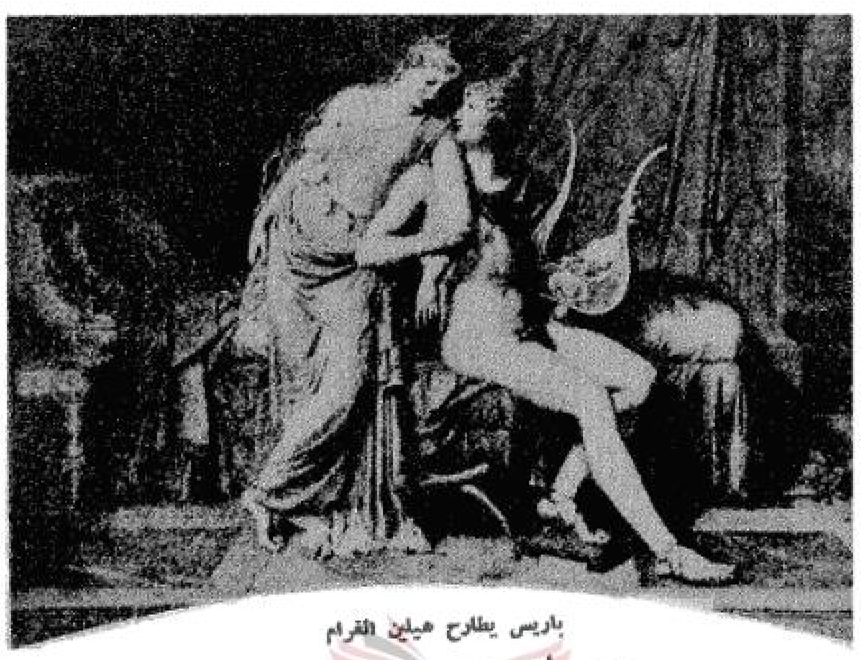


باريس يطارح هيلين الغرام

هيلين فاتنة طروادة

لاجلها قامت أول حرب بين الشرق والغرب

بقلم الأستاذ عبد الرحمن صدقى

منذ أكثر من ثلاثين قرنا من الزمان ، طلع على الدنيا من أرض يونان ، المثال الاعلى للجمال في صورة انسان • وكان هذا الانسان : هيلين

أنها « هيلين » ، ابنة ملك اسبرطه « تينداريوس » ، من زوجته الحسناء ليدا • وكانت الصبية اليونانية من الجمال بحيث زعم اليونان في خرافاتهم أن أمها حملت فيها من كبير آلهتهم « زوس » نفسه ، حين زارها في شكل طائر رائع ، من جنس البجع الطويل العنق الابيض الناصع

في بلاط ملك اسبرطه اليوناني

ذاعت شهرة جمال هيلين في أنحاء بلاد الاغريق ، فلم يبق أمير من امرائها الا تطلع الى زواجها • فأخذوا يتوافدون على أبيها ، وفيهم من غلب

الابطال ببراعته فى الحرب وشجاعته ، ومن فاق الاقران بقوة بأسه ووثاقة بنيته ، ومن اشتهر بطائل غناه وثروته ، ومن زانه رونق صباه ووسامته والكل تحدوهم فكرة واحدة ، وتستحوذ عليهم رغبة واحدة : الظفر بملكة ذلك الجمال النادر المثال · وكان الشيخ ملك اسبرطه يطاولهم ويماطلهم، حتى أخذ يضيق صدرهم وينفذ صبرهم يوما بعد يوم ، وسرى التذمر بينهم ، وظهر التململ منهم ، وأوشك أن يستبد بهم السخط وتنفجر مراجل غضبهم !

ولقد تنبه « عوليس » ملك جزيرة اتاكا الى خطر الموقف ، وكان أنفذ أمراء الاغريق فطنة ، وأبرعهم رأيا ، وأمكرهم تدبيرا · فأشفق على الملك الشيخ . فقصده وأسر اليه :

ـ يا عاهل اسبرطه العظيم ! ستحدث خطوب فى بلاطك الكريم ، اذا أنت لم تعجل باعلان قرارك فى شأن زواج ابنتك هيلين · ان الخاطبين فى قلق يزداد يوما بعد يوم ، وأنت أعرف بطباعهم من أن تتوقع صبرهم على هذه الحال

قصة غادة اسبرطة · بيضاء هيفاء شعرها الذهبى بلون الشمس ، وعيناها النجلاوان لهما زرقة البحر ، وقد أفرغ قوامها فى قالب من الجمال لايضارعه جمال

ـ أنت على الحق ، يا عوليس الحكيم ! ولكن ما الحيلة ؟ لو أنهم فى مثل حكمتك ورجاحة عقلك ، ما ترددت فى اعلان قرارى · ولكنى مشفق ان أنا أعلنت اختيار أحدهم زوجا لهيلين ، أن أثير عليه حسد الآخرين وينشب النزاع ، وتحل بنا كوارثه أجمعين · فهل ترى لى من ذلك مخرجا يا عوليس !

ـ من أجل هذا توخيت لقاءك ، فان عندى لك المخرج ، وهو غاية فى البساطة واليسر

ـ أحقا تقول ؟ هات اذن ، يا عوليس الحكيم ! وسأكون طوال العمر شاكرا معروفك ذاكرا لك حسن سعيك

ـ يا ملك اسبرطه ! هذه نصيحتى اليك :

واقترب عوليس من الملك الشيخ ، وهمس فى أذنه ما ارتآه من الرأى وأخذت تنبسط من الشيخ الهموم غضون وجهه وتبرق أساريره · وما انتهى عوليس من همسه حتى كان محيا الملك يطفح بشرا ، وكاد على تمسكه ورغم شيخوخته يطير فرحا · واستأذن بعدها عوليس وانصرف ، والملك يردد : « شكرا يا صديقى ، شكرا ! أرى اليونانيين لم يكونوا

مبالغين ، حين قالوا انك خير الناصحين »

ودعا الملك رسله فأنفذهم الى أمراء يونان يعلمونهم أن الملك قد اتخذ قراره فى شأن زواج ابنته هيلين ، ويدعوهم الى موعد الاجتماع فى قصره لاعلانهم بالقرار

وفى الموعد المضروب ، اجتمع فى قاعة العرش فى القصر الملكى باسبرطه طالبو الزواج من هيلين وهم خلق كثير ، كلهم من بيت ملك كبير • وكانوا من عظم الرغبة وفرط اللهفة يتســاءلون فيما بينهم اذا كان قد نما الى بعضهم علم ما انتهى اليه قرار الملك تينداريوس • فلم يشف أحد غليلهم، بيد انه لم يطل انتظارهم ، اذ طلع عليهم الملك الشيخ ومعه ابنته هيلين ، بيضاء هيفاء ، شعرها الذهبى بلون الشمس ، وعيناها النجـلاوان لهما زرقة البحر ، وقد أفرغ قوامها فى قالب من الجمال لا يضارعه بين نساء العالمين جمال • واستوى الشيخ على عرشه وهى الى جانبه ، ثم تكلم فحيا الامراء الوافدين أطيب تحية ورحب بهم ، ثم قال :

ـ سأختار اليــوم من بينكم ، يا أمراء يونان ، زوج ابنتى • ولكنى أطالبكم قبلها أن تؤدوا اليمين بين يدى

فتصايحوا :

ـ أية يمين يا ملك اسبرطه ؟ ومن منا تريده على أداء هذه اليمين ؟

ـ أريدها منكم أجمعين ، أريدكم على القسم بأغلظ الايمان ، أن لايكون زواج هيلين مثارا بينكم للتحاسد والاضغان ، وأن تؤيدوا حق الزوج الذى سيختار منكم أيا كان ، وأن ترعوا حرمة هذا القران ، وتدفعوا عنه كل عدوان

ولما لم يكن من الامراء واحد الا وهو كبير الامل فى أن يكون ذلك الزوج المحظوظ ، فقد هتفوا بصوت واحد : « فلنقسم ! »

وهنا أمر الملك الشــيخ ، فجىء بالحملان والجديان ، ثم قدمت أقداح النبيذ للامراء الشبان ، وعندها ارتفع صوت الملك وهو قائم يبتهل :

« نشهدك يارب الارباب، وأنت أيتها الآلهـة المنتقمة من الحانثين نشهدكم أجمعين على هذا القسم العظيم »

وتلا ملك اسبرطه القسم ، وردده الامراء من بعده :

« نقسم بأغلظ الايمان ، أن نؤيد حق الزوج الذى سيختار منا أيا كان، وأن نرعى حرمة هذا القران ، وندفع عنه كل عدوان »

وكان لاصواتهم ـ وهم يرددون القسم فى قاعة العرش ـ دوى عظيم رنان ، ترددت أصداؤه وتجاوبت بها الجدران

وعلى أثر ذلك نحرت الاغنام ، وشرب الامراء الشبان جرعة من أقداحهم، ثم أهرقوا ما بقى على أرض المكان ، وهم يرددون فى صوت واحد : « هكذا فليهدر دمه ، من حنث بقسمه »



هيلين على أسوار طروادة ... ويظهر على ملامحها الحزن العميق

وبعدها ، ساد السكون وثقلت وطأته على هذا الجمع من المحبين ، وهم سكوت يتطلعون الى الملك الشيخ ، وقد تعلقت أبصارهم وقلوبهم بشفتيه، وأخيرا قال :

ـ أيها الامراء ! انكم جميعا من شرف القدر ، وكرم العنصر ، وعلو الهمة والشجاعة ، بحيث يشق على المفاضلة بينكم ، واختيار واحد منكم أكون به أعجب مني بغيره . فأنا من أجل هذا ، أدع الخيار لك يا هيلين! فاختاري زوجا من ترين

ولما أتم الملك تينداريوس مقاله ، رفعت « هيلين » الفاتنة هامتها الذهبية ، وأجالت عينيها بزرقتهما اللازوردية في صفوف خطابها الامراء، وهم قائمون تجاهها ، يتابعون لحاظها كمن يتابع من الشمس المتنقلة

شعاعها ، وكلهم ينتظر ما سوف تنفرج عنه شفاهها
وبدت على هيلين الحيرة ، فأعادت الكرة ، وردت الطرف ثانية وثالثة في صفوف الامراء ، فكان في ذلك التكرار زيادة من حيرتها في الاختيار. وأخيرا وقفت بنظرها الحائر عند أحدهم ، والتفتت الى أبيها تقول في صوت خافت :
ـ اخترت الامير منلاوس
كانت هذه كلمة هيلين . وقد لبث الجميع من دهشة المفاجأة مبهوتين. وكان أشدهم مفاجأة وأعمقهم اندهاشا « منلاوس » نفسه . فهو لم يكن أبرز الحاضرين شخصية ، ولا أكثرهم ثراء ، ولا أقواهم بأسا ، ولاأجملهم رواء . وكان موقفه من هيلين كلما رآها ، أقرب الى العابد منه الى موقف الخاطب . ولكن هيلين قالت كلمتها ، والمشيئة في ذلك مشيئتها
ولقد ظهرت بوادر الاستياء على الامراء ، ولكنهم ذكروا اليمين التى اقسموها ، واللعنة التى استنزلوها على الحانثين
واحتفلت اسبرطه بزواج هيلين ، وأقيمت الاعراس بين الاناشيد والرقص وتحايا الاشعار وأكاليل الازهار . فلما أنأصبح الصباح ، أعلن الملك الشيخ أنه نزل عن العرش لصهره بمثابة الهدية لعرسه
ولم تمض سنوات حتى كان الشيخ قد مات ، تاركا على عرشاسبرطه صهره منلاوس ، والملكة هيلين ، وابنتهما الصغيرة هرميون والجميع في وئام وسلام

في بلاط ملك طروادة الاسيوى

كان في تجاه اليونان ، في البلاد الواقعة شرقي بحر ايجه على الشاطىء الاسيوى ، مدينة عزيزة الجانب شديدة المنعة ، قوية غنية ، هي طروادة وكانت المدينة واقعة بين جبل « ايدا » الشامخ والبحر ، قائمة على رأس ربوة تشرف على الاودية الخصبة الناضرة عند سفحها ، وتتحكم كالسيدة الآمرة الناهية فيمن حولها
وكان الجالس وقتئذ على عرش هذه المدينة العظيمة « بريام » وهو في قصره الممرد الفخم سعيد باستقرار ملكه الضخم ، فخوربأولاده الخمسين، وكان أشجعهم « هكتور » وأجملهم « باريس »
وفي ذات ليلة رأت الملكة « هيكوبا » في منامها ، قبلولادتها «باريس» حلما عجيبا : رأت نارا تندلع من بطنها ، ثم أخذت هذه النار تعظم ويمتد لهبها الى المدينة وتستشرى فيها حتى حرقت طروادة كلها .وصبت الملكة من نومها مذعورة ، وقصت على الملك رؤياها ، فجعل يسرى عنها ، وهو في دخيلة نفسه ليس أقل انزعاجا منها . فلما أسفر الصبح ، دعا بالكهنة العرافين ، فتوافدوا واحدا بعد الآخر ، وهم جميعا كهول قد شابت لحاهم الطوال وشعورهم المسترسلة ، فلما احتشد جمعهم واكتمل



اختطاف هيلين

حفلهم ، ادخلوا الى قاعه العرش حيث كان الملك والملكة فى انتظـارهم ، فسلموا بالتعظيم ، ووقفوا فى انتظار الامر ، مطأطئين رءوسهم ، ضاربين بالاذقان صدورهم • وأذن الملك لهم بالجلوس فى حضرته ، وأبلغهم السبب الذى استقدمهم من أجله ، ثم دعا الملكة أن تقص عليهم رؤياها

وأصغى الكهنة الى تفصيل الرؤيا فى صمت مطبق وسكون مطلق ، فلما فرغت الملكة هيكوبا من روايتها ، قام أكبرهم سـنا ، وقال بصوته الخافت وهو ينفض رأسه الاشيب أسفا : « رؤياك أيتها الملكة رؤيا محزنة، فالولد الذى سوف تلدين ، سيكون سببا فى حريق عظيم يدمر طروادة• ذلك مبلغ علمى » • وقام على الأثر سـائر الكهان فرددوا ما قاله

كبيرهم ، وهم يهزون رءوسهم المبيضة أسفا ، ثم أخذوا ينصرفون

فلما صار الملك والملكة وحدهما وخلتقاعة العرش الا منهما ، أجهشت الملكة بالبكاء ، وكان الملك حزينا مهموما ، ولكنه أقبل عليها يحـــاول التسرية عنها ، فلما هدأ روعها قليلا ، ساءلته عما هو فاعل ، فقال :

ـ نحن ـ بحمد الآلهة ـ غير محرومين من الولد ، وعندنا منهم الكثير ، فلا بأس ألا يكون لنا هذا الاخير ، فليس من الصواب فى شىء أن نحرص عليه ، اذا كان حريق طروادة على يديه

ـ واذا كان الكهنة مخطئين ؟ واذا كان الوجـــه فى تعبير الرؤيا غير ما ذهبوا اليه ؟

ـ كلا ، الكهنة لا يخطئون · وقد رأيت كيف هم على هـــذا التأويل مجمعون ··· لا ، لا ، لا يمكن أن نحتفظ بالوليد · سيحمل عند مولده الى الغابة البعيدة ويترك هناك · وبهذا نكون قد كفلنا الخلاص لمدينتنا

ـ ولكن ماذا يكون أمر الطفل المطروح فى الغابة ؟ انه هالك لا محالة، ونكون نحن سبب هلاكه

ـ اننى المسئول عن هذا البلد · والواجب يقضى على أن أقدم بلادىعلى أولادى · ان فجيعتى فى ولدى واقعة على وحدى ، أما الوطن فالفجيعةفيه تشمل الاجداد والابناء والاحفاد والاجيال المقبلة جميعا

ولم تجد الملكة الحزينة المسكينة غير التسليم · ولما وضعت وليـــدها لفته فى قماط من الخز المطرز ، ودثرته بدثار من الصـــوف ذى الوبر ، وأودعته سلة لطيفة كانت قد أوصت بصنعها ثم انحنت عليه وقبلته فى لهفة مرات ، ودفعته الى الملك · وهرولت وقد تبادرت عبراتهـا وأغلقت عليها باب غرفتها ، تبكى وليدها وتفكر فى مصيره

واحتمل الملك الامير الصغير ، وأرسل فى طلب راع من رعاته الامناء ، وناوله الوليد قائلا :

ـ هذا الطفل يجب هلاكه ، فاحمله الى جبل ايدا ، بعيدا عن المدينة ، وعن العمار ، واتركه وحده على القمة ولا تعد اليه · هذه مشيئتى

وأنفذ الراعى مشيئة الملك ، وعاد الى كوخه فى سفح الجبل·ومنذ ذلك اليوم ، تكررت على نظر الراعى ظاهرة غريبة · فهو يرى من بعيد دبة من الدببة ترقى الجبل فى صباح كل يوم وتهبطه فى المساء · وقد بلغ من الراعى العجب أن دفعه الفضول ذات يوم الى أن يرقى الجبل خلفها ويقفو أثرها ، فاذا الدبة تبلغ القمة وتقترب من السلة المطروحة وترخم عليهـا لترضع الطفل ، ثم تعود أدراجها · وقد عجب الراعى مما رآه ، وكان لا يكاد يصدق عينيه ، ولما عاد الى كوخه قص على امرأته القصة · فقالت وهى لا تتمالك نفسها من العجب : « هذا من خوارق المعجزات · وهو

دليل على أن الآلهة تريد خيرا بالامير الصغير ، فينبغي أن لا تدعه يهلك »
وصادف هذا الكلام هوى فى نفس الراعي ، فذهب تحت ستار الليل الى قمة الجبل ، وحمل الطفل في سلته الى الكوخ ، وقام هو وامرأته على العناية بأمره على أنه ولدهما ، وقد أفعم بالسرور قلباهما أن يكون لهما ولد بهذا الحسن والرواء

وشب الغلام على اعتقاد انه ابن الراعي ، وقد أطلق عليه اسم «باريس» وكان حين كبر يتولى عن أبيه رعى الغنم ، كما كان يخرج أحيانا للطرد ويعود الى الكوخ محملا بالصيد • وكان يزيد مع الايام ريعانا وحسنا ويشتد عنفوانا وبأسا ، وكان عليه من نبالة السمت ووجاهة الشارة ما ينم على الامارة • وكانت تتعرض له الفتيات من بنات الرعاة وهو معرض عنهن ، ولم تقع فى نفسه الا الصبية «اينون» ذات القلب الحنون التيكانت تسكن علىجبل ايدا فلقيته فى صباح يوم رائق،رقيق الهواء شفافالنور، وكانت مثل غصن الزنبق فى ثوبها الابيض ، تقطف الزهرالبرى،وتجعل منه كل زينتها ، فهو الطاقة فى يدها ، والتاج لشعرها والحلية لمنطقتها• وكانت وسط هذا الزهر العميم ، تطفر وتغنى بصوتها الرخيم • وهكذا لقيها « باريس » أول ما لقيها ، فاستمالته وتولع به قلبها

فى وليمة الآلهة على جبل الاولمب

تروى الاساطير ان آلهتهم كانوا فى معظم ولائمهم يغفلون دعـوة الهة الخلف والشقاق « ايريس » حتى لا يعكر وجودها صفو اجتماعهم وكانت « ايريس » تنكر ذلك منهم وتضطغنه عليهم وتأخذها لهم حمية وحزازة• وقد بلغ الىعلمها قيامحفلة شائقة منأبهىحفلاتالاعراس دعيت اليها الآلهة جميعا ، ولم يستثن من الدعوة سواها • فانتهزت اجتماع الآلهة فى قاعة الاحتفال حول المائدة والقت عليها تفاحة ذهبية منقوش عليها « الى أجمل النساء » ، فكان طبيعيا أن تدعى الحق فيها جميع الحاضرات ، ثم انتهى الامر بأن انحصرت المنافسة بين « أفروديت » و« هيرا » و «بالاس أتينا» وقد طلبن الى كبير الآلهة « زوس » أن يكون الحكم ، ولكنه كان أحكم من أن يقضى بينهن ، لاسيما وفيهن « هيرا » زوجته ، وأشار عليهن أنيذهبن الى جبل ايدا بالقرب من طروادة فيحتكمن الى ابن ملكها الامير الشـــاب « باريس » الذى يرعى هناك الاغنام جاهلا شرف محتده

وما كان أشد تعجب الفتى ودهشته حين مثلتأمامه وتجلت قيد عيانه هذه الصور الرائعة للربات الثلاث ، وعندها أقبل عليه « هرمز » وكأنه يطير من خفة قدميه المجنحتين ، وقال له فى لطف وايناس كأنه يعـرفه منذ سنين طوال :

ـــ لا تعجب مما ترى يا « باريس » ! ان هؤلاء الربات الحســـان انما هبطن من سماء الاولمب ليحتكمن الى البشر أيهن أبرع حسنا • وقداختارك

كبير الآلهة « زوس » لتكون الحكم · فمن وقع عليها اختيارك بعد التأمل والروية ، فامنحها هذه التفاحة الذهبية

فجعل الفتى يتأمل الربات الحسان الثلاث وهو لا يفيق لنفسه حتى يستجمع حسه ويصدر حكمه ، فتقدمت احداهن نحوه ، ولما صارت على خطوات منه ، أسرت اليه :

ــ تعال ، يا ابن ملك طروادة ! فأنا ربة المعرفة والحرب ، وسيكون عليك أن تكافح عن بلادك وتدفع العدو عن أسوارها وتحمى ذمارها · فاذا أنت منحتني التفاحة الذهبية جعلتك من أهل التدبير والمعرفة وكنت حامية بلادك ونصيرتك على سائر المحاربين الابطال

قالت « بالاس اتينا » ذلك ، ثم تراجعت الى مكانها · وتقدمت «هيرا» حتى صارت فى محاذاته وقالت :

ــ أنا زوجة « زوس » أبى الارباب · وأنت أمير وابن ملك كبير ، وفى مستطاعى اذا أنت قضيت لى بالتفاحة أن أجعلك ملكا على آسيا كلها وأضع فى يديك خزائنها وأجعل كلمتك فوق ملوك الارض أجمعين

وأخيرا أقبلت عليه « أفروديت » ، واقتربت منه حتى لاصقته ، وقالت فى دلال بصوتها الرخيم :

ــ أنظر الى أفروديت ربة الحب والمتعة · ماذا أنت واجد فى السيادة على الخلق أو احتوائك كنوز الارض ؟ انك أمير وابن ملك كبير، ولا ينقصك شىء من علو النسب وشرف المحتد · فاذا أنت جعلت من نصيبى التفاحة، جعلت من نصيبك هيلين أجمل نساء الدنيا ، فعرفت طعم السعادة التى لا تعدلها سعادة

وكان فى هذا العرض ما يغرى الفتى « باريس » الذى كان يقضى أيامه فى رعى الغنم ، ولياليه مع بنات الغاب مستسلما لحياة الدعة ، بعيدا عن مطامع الملك ومنافسات أهله · وزاد فى اغرائه ما تشيعه افروديت حولها من جو مشبع بالسحر والاشواق والنشوة الحسية الغرامية

وهكذا لم يسع « باريس » الا أن يلقى اليها بالتفاحة الذهبية

ومنذ ذلك الحين ، تغير حال « باريس » مع فتياته ، ومنهن « اينون » التى كانت أحظاهن عنده ، فكان مع بقاء اتصاله بهن قليل الاقبال عليهن ظاهر الفتور نحوهن · وصار يكثر من العزلة خاليا بنفسه يفكر فى السبيل الى العودة الى مكانه بين أهله

واتفق أن أقيمت فى طروادة وقتئذ مباراة من تلك المباريات الرياضية التى جرت العادة باقامتها فى كل عام ، فاعتزم الفتى أن يشارك فيها ، وودع الراعى وزوجته ، وكان الوداع شديد الوقع عليهما ، كأنما ألقى فى روعهما أن فى الامر سرا وانهما هذه المرة يضمانه للمرة الاخيرة الى صدريهما · وكذلك كان وداعه للصبية « اينون » وداعا أليما فاضت له

دموع الفتاة مدرارا وتصعدت زفراتها نارا ، وقد وقر في نفسها انه فراق الأبد

وكان قد أعلن في أنحاء المملكة دعوة الشباب الطرواديين الى المساهمة أجمعين في المباريات ، فجاءوا أفواجا دون تفرقة بين الاغنياء والفقراء ما داموا جميعا أصحاء البنية أقوياء · وكان فيهم من يعرفهم شهود المباريات لسابقة اشتراكهم أكثر من مرة ، كما كان فيهم خلق كثير لا يعرفهم الجمهور لدخولهم المباراة للمرة الاولى · ولما بدأت المباراة كان بدؤها سباق العدائين ، وكانت جموع الناس تهلل لمن يعرفونهم كلما مروا بهم ، هاتفين بأسمائهم ، ولم يكن من هؤلاء « باريس » فلم يعره أحد التفاتا ، ولكنه لم يمض القليل حتى ظهر تفوقه على المتسابقين ، فأخذ المتفرجون يسائل بعضهم بعضا : من يكون ؟ فلما انعقد له النصر آخر الامر ، قاده الموكلون بالمباراة الى المنصة الملكية ، فأظهر له الملك رضاه وأثنى عليه ، وهشت الملكة في وجهه وبان سرورها به وانجذابها اليه · ثم سئل عن اسمه ، فقال في غير تردد ولا افتعال :

— أنا الامير « باريس » بن بريام ملك طروادة وابن هيكوبا ملكتها !

فلما بانت عليهما الدهشة ، أتاهما في الحال بالسلة والغطاء ذي الطراز وكان قد احتفظ بهما ، فتلقى الملكان ابنهما الذى كان في عداد الاموات في أحضانهما ، وصاح المنادي على الملأ يعلن اسم الفائز : « باريس » ابن ملك طروادة وابن هيكوبا ملكتها »

وتناسى الوالدان قصة الحلم وتأويله حين أبصرا وليدهما ، يرد اليهما فتى بلغ مبالغ الرجال ، قوى الاسر وافي النشاط رائع الجمال ، قد فاق على أقرانه وأترابه ، وهو بعد في ريعان الشباب

وهكذا عاش « باريس » في كنف والديه مع سائر أخوته واخواته ، وأخذ يتأدب عليهم ويتلقى عنهم حتى انسلخ عن عادات الرعاة الفقراء وصار مسلكه في كل شيء سلوك الامراء · وعندها فكر والده الملك أن يوفده في بعض الاسفار ليفيد منها المعرفة والخبرة

ولما كان الملك منذ مقتل أبيه على يد العملاق هرقل ، وسبى أخته الصغيرة وارغامها على الزواج من ملك جزيرة سلاميس ، غير مطمئن البال على مآل أخته بعد أن تواترت الاخبار بما تلقاه على يد زوجها اليوناني من المهانة وسوء المعاملة ، فقد فكر الملك أن يكون سفر ولده « باريس » لزيارة عمته في الناحية الأخرى من بحر ايجه · فلم يعتم الفتى أن أبحر على مركب كبير مجهزة ومعه من الهدايا والالطاف كل نفيس · وما برحت المركب تمخر به عباب الازرق اللجي حتى اذا بلغ مياه سلاميس ، قصد من فوره الى القصر الملكي حيث استقبله الملك على ما جرى به رسم استقبال الامراء ، ولكنه أحس بما وراء ذلك من الجفاء · وعلى الرغم من أنه لم يقض في

ضيافة عمته الا يومين ، فقد لمس ما تلاقيه الملكة المسكينة من الفظاظة والضيم ، فلم يطب له أن يطيل المقام عندها . ويضاف الى ذلك أنه طوال رحلته في البحر كان يسرح بخاطره مع الامواج المتدافقة المضطردة الى أرض هيلين في جنوب شبه الجزيرة اليونانية . فكيف يطيل مقامه في سلاميس بعيدا عنها ، وليس يفصله عنها الا مسافة يوم أو بعض يوم

غواية هيلين

رفعت المركب مراسيها من ميناء سلاميس ، وانطلقت منشورة الشراع متجهة الى اسبرطه ، وكانت الريح مؤاتية ، ولكن « باريس » لم يكفه من المركب انتفاخ شراعها ، بل أمر بالمجاذيف ليزيد من سرعة اندفاعها . فما وافت الظهيرة حتى كانت رسله قد تقدمته على ظهور الخيل بالهدايا تستأذن له في مقابلة ملك المدينة

وبعد لحظة أقبلت عجلة يجرها جوادان من عتاق الخيل ، وكانت جوانب العجلة موشاة بالذهب ، ومن داخلها بطانة الديباج ، ويستقلها فارس جميل الصورة في حلة فاخرة وزينة باهرة ، وكانت نظرة واحدة الى مظهره تدل على انه أجنبي قادم من الشرق الغني

واستقبل الملك منلاوس في مظهره المخشوشن البسيط ضيفه الملكي القادم من الشرق الغني . وبعد أن بادله التحية ، وساله عن موطنه وعن البلاد الاسيوية ، دعاه في غير كلفة الى مائدته . فقدمت الجواري أقداح النبيذ والخبز الابيض وقطع اللحم المشوي ونحو ذلك من المآكل البسيط . فما أن فرغا من الطعام ورفعت آنيته ، اذا بامرأة أشبه بحور الجنان تدخل وعليها مسحة من السأم الحزين ، وتلقى الى ملك اسبرطه قولا يبدو أنها كانت قد كررته عليه منذ هنيهة : « ألا تزال معتزما السفر ؟ وهل لاتزال عند رأيك في السفر وحدك ؟ »

وينظر منلاوس الى زوجته كالمنكر لدخولها مع وجود غريب في حضرته . ولا يسعه الا أن يبادر بتعريف الاثنين ، ثم الاعتذار لها بأن الوحدة تثقل عليها . وهو مضطر للرحيل الليلة ، فهي تحاول أن تثنيه عن السفر أو تقنعه بالذهاب معه . ولما كان كلاهما متعذرا ، فهي عاتبة غاضبة تكاد من الغضب تنسى نفسها وتخرج عن طورها . وما كاد « باريس » يرفع نظره اليها حتى راعه جمالها واضطرم قلبه هياما بها . وما كان هذا الاضطراب ليخفى على هيلين ، ولقد أعجبها ذلك وراقها ، وأرضى كبرياءها التي جرحها الزوج برفضه اصطحابها واظهاره الصبر على بعادها . وقد زاد من ارتياحها في هذه اللحظة الى ما أحدثه جمالها في نفس الغريب من الروعة أنه كان أنضر من زوجها شبابا وأغض اهابا وأجمل طلعة وأفخر حلة وأبهى زينة

ولما كان منلاوس على أهبة السفر بعد قليل ، فقد استجمع «باريس »



هيلين تعود الى زوجها فيقدم لها هدية سرورا برجوعها سالمة

بقية عزمه وتحامل على نفسه واستأذن في الانصراف . وعلى الاثر خرج ملك اسبرطه في زمرة من اتباعه بعد أن ودع زوجته وابنته ، قاصدا الى جزيرة كريت في زيارة لملكها في شأن من الشئون

وبقيت هيلين في الدار وحدها خالية بنفسها تفكر في حالها مع زوجها وانصرافه الى شواغله الكثيرة التي لا آخر لها ، ثم تذكرموقفها الاخير منه، والحاحها عليه في السفر معه ، وتتخيل دخولها عليـــه وفي حضرته ذلك الغريب ، وعندما تتوقف بتفكيرها عند هذا الغريب ، فيستحضره خيالها في عنفوان شبابه وريعان حسنه وجماله وحفل زينته وهنـدامه . وهي لا تني تصرف هذه الصورة عن مخيلتها ، ولكن الصـــورة كانت لا تنى تعاودها وتتشبث بها

وكان اليوم عيد « افروديت » ، والناس يحتفلون به كافة، وقد ازدحمت بهم الطرقات ، وطافت جموع الفتيان والفتيات ينشدون ويرقصـــون ، وتتجه مواكبهم الى معبد الربة ، وقد ازدان تمثالها بقلائدالجوهر وأسماط الدر وأكاليل الزهر

ولم تلبث « هيلين » حين جن الليل أن أحست فى نفسـها حاجة الى التعبد للربة . فذهبت ومعها بعض جواريها يحملن القرابين ، فما كادت تضعها على المذبح ، وتستغرق لحظة فى ابتهالها ، حتى كان الى جانبهـا « باريس » يسأل الربة أن توفى له بوعدها

وقامت « هيلين » فاذا بها و « باريس » وجها لوجه ، واذا هو يمسك بذراعها فلا ترده ، واذا هو يخرج بها من المعبد فتنقاد له،واذا هما تنطلق العجلة بهما كالشهاب الهاوى الى الميناء ، وسرعان ما ينشر الشراع للهواء وتتحرك المجاذيف فى الماء ، فاذا السفينةالطروادية تغادر الارضاليونانية حاملة معها آية الجمال ، حتى اذا صارت السفينة فى عرض البحر،تراءى على ظهرها تحت القمراء عاشقان متعانقان وكأنهما فى عنـاقهما الحار شعلة نار

اول حرب بين الشرق والغرب

شنعلة نار كان ذلك الحب · فهو الذى أضرم للمرة الاولى نار الحرب بين الشرق والغرب

غضبت يونان كلها للمهانة التى لحقت بها · فحمل السلاح نحو المائة ألف يونانى ، بقيادة أخى الزوج المغصوب « أجا ممنون » ملك أرجوس ، ومشاركة غيره من ملوك المدن اليونانية ، وقد أقلتهم ألف مركب مجهزة أبحرت بهم من ميناء « أوليس » عابرة بحر ايجه الى السـاحل الاسيوى حيث تقوم على مقربة من مضيق الدردنيل « طروادة » العظيمة

وهنا وقع الصدام الذى تغنى بأحداثه العظام أول الرواة المنشـدين « هوميروس » ، واليه فليرجع من شاء من القارئين · أما نحن ، فحسبنا ان نذكر هنا على سبيل الاختصار ، ان المدينة الحصينة امتنعت علىجيوش اليونانيين،ولم يسفر القتال المرير بينهم وبينالطرواديين عن انتصار مبين لأحد الفريقين فاعتمد اليونان على الحصار آخر الامر ، وأقاموا عـلى ذلك سنوات عشر · ولولا ركونهم الى الخيانة والحيلة ، لما كان لهم الى طروادة من وسيلة · وهؤلاء هم قد دخلوها خلسة ، وأخذوا أهلها على غرة،فنهبوا أموالهم وسبوا نساءهم وأمعنوا فى رجالهم وأطفالهم تقتيلا ، ثم أضرموا النار أخيرا فى المدينة ، فلم تزل نار الحريق ترعى فى نواحيها ، وتأتى على أسوارها ودورها ومغانيها ، حتى صارت أثرا بعد عين

ولقد فقد اليونانيون فى هـذه الحرب الكثير من رجالهم ، وفجعوا فى معظم أبطالهم ، ولكنهم عادوا ومعهم هيلين ، آية الجمال العديمة المثال ، لتشرق من جديد على اسبرطه ، وعلى يونان كلها فى ذلك الحين ، ثم من بعده حتى اليوم والى أبد الآبدين ، فى مخيلة العالمين جيلا بعد جيل

سميراميس

ملكة نينوى وغانية مدينة بابل

« لقد خلعت على الطبيعة صورة امرأة ولكن اعمالى قد فاقت اعمال اشجع الرجال »

هي اميرة اشورية ، حامت حولها الاساطير المتباينة ، حتى جاء عام ١٩١٠ وكشفت الابحاث التى قام بها البروفسور « لهمان هوت » الالمانى عن حقيقة هذه الاميرة ، واعادها الى مكانتها الرفيعة فى تاريخ اشور وبابل ، ووضع الامور فى نصابها

وقد استطاع البروفسور لهمان هوت ان يفند الاساطير التى اتى على ذكرها كل من « ديودوراس سيكلاس » و « جوستن » وغيرهما حول هذه الملكة ، ودلل على انها كانت حقيقة لا مراء فيها

وتقول الاساطير ان سميراميس كانت ابنة الهة السمك «اتارجاتيس اسكالون » فى سورية ، وان الحمام هو الذى ارضعها وغذاها وحفظ لها حياتها ، حتى شبت وترعرعت ، ثم وجدها سيموس وسط الصحراء ، فجاء بها معه ، واطلق عليها اسم سميراميس

ثم رآها القائد منونيس حاكم نينوى حين كان يتفقد أرجاء سوريه نيابة عن الملك نينوس ، فالفاها شابة فتية رائعة الحسن ، فتانة الجمال ، فسلب قلبه هذا الحسن الوضاء ، واسر فؤاده ما رآه من ذكائها المتوقد وسرعة بديهتها ، فبادر الى الزواج منها ، وسرعان ما رجحت كفتها على كفته ، وتحكمت فيه بعقلها وحكمتها ، ولم يسعه الا ان يخضع لمشيئتها ، والا ان يحترم ارادتها وياخذ بنصحها فى كل مايعرضه عليها من المشاكل العويصة

وكان الملك نينوس رجلا طموحا عظيم المطامع ، وكان قد استطاع ان يخضع اغلب الاقطار الاسيوية فيما عدا الهنود والبكاترة ، وبعد ان ابدع فى اتمام تشييد مدينة نينوى ، وحصنها تحصينا قويا عظيما ، وجهز سورها الضخم العريض بالف وخمسمائة برج يبلغ ارتفاع الواحد مائتى قدم ، وبعد ان اطمأن الى ان عاصمة ملكه اصبحت حصينة الى اقصى درجات الحصانة جهز جيشا لجبا عرمرما ، وزحف به الى البكاترة ،

والتقى بملك العدو وهزمه شر هزيمة ، واستولى على كل البلاد ماعدا « بكتريا » مقر سلطانها ، فطوقها بجيشه وحاصرها

وكان القائد منونيس فى رفقة الملك فبعث الى زوجته سميراميس يستقدمها ، فلما حضرت ودرست الموقف ، رأت الفرصة سانحة لتكشف عن قوتها وبراعتها ، فارتدت ملابس لا تنم عما اذا كانت رجلا أو امرأة ، واتجهت الى المعسكر ، فوجدت أن الهجوم موجه الى قسم من مدينة «بكتريا» قائم فى السهل ولم يوجه الى قلعتها مما جعل البكاترة يحرسون هذه الحصون بعدد قليل من الجنود ، فى غير يقظة و اهتمام ، فانتخب سميراميس فرقة من الجيش لها المام بالتسلق ، وقادت هذه الفرقة وهى تتقدمها متجهة صوب الحصون ولم يمض الا وقت قصير حتى استطاعت أن تستولى عليها ، وبعثت برسلها تستدعى الجيش الرابض فى السهول ، ولم يستطع البكاترة أن يقاوموا مقاومة فعالة بعد أن سقطت حصونهم ، ولهذا أسرعوا بالتسليم حقنا للدماء التى لاجدوى من اراقتها

وتناهى الخبر الى الملك نينوس ، وعلم أن امرأة هى التى عجلت بنصره ، فطلب أن يراها ، وما كادت أنظاره تقع عليها حتى فتن بحسنها الوضاء وذكائها المتوقد وجرأتها واقدامها ، فاعتزم أن يتزوجها ، وعرض ابنته على القائد منونيس بدلا منها ، ولكن منونيس كان مفتونا بزوجته مشغوفا بحبها ، ولم يرضه أن تحل مكانها زوجة أخرى ، كائنة من كانت ، وخشى على نفسه من غضب الملك اذا هو أبى أن يتخلى عن زوجته ، ولم يجد مخرجا لنفسه ، من هذا المأزق الا بالانتحار

وتزوج الملك نينوس من سميراميس ، وقضت معه سنوات عديدة كانت فى خلالها زوجة مثالية وكانت خير من يعتمد الملك عليها فى طلب النصح ولهذا أوصى لها بالملك من بعده

سميراميس

وقضى الملك نينوس نحبه بعد حكم طال حتى بلغ اثنتين وخمسين عاما ، وخلفته الملكة سميراميس على العرش لان ابنه نيناس كان صغيرا

ومن الاساطير التى لم تثبت صحتها انها استطاعت ان تغرى الملك بأن يتخلى لها عن سلطانه فترة قصيرة من الزمن ، فرضى بذلك وهو مطمئن اليها ، ولكنها بعد أن استتب لها الامر امرت بسجن الملك ثم قتله ومن ثم اعتلت العرش من بعده

غير ان القول المتواتر هو ان الملك نينوس اوصى لها بالعرش بعد وفاته، فقد كان يؤمن برجاحة عقلها، وقدرتها على الاضطلاع بأعباء الملك، ومن الادلة على صحة القول المتواتر أنها شيدت لزوجها قبرا فخما بجوار برج بلوس وزينته بتماثيل من الذهب الخالص

◻

حين استقر الامر للملكة سميراميس على العرش اختلجت في قلبها المطامع، وخايلها الطموح الى المجد والسؤدد، وارادت أن تكون اعظم شأنا من الملك نينوس، واخلد ذكرا، فاحدثت تغييرا شاملا عظيما في البلاد، وبدأت في تشييد مدينة بابل العظيمة التى طبقت شهرتها الافاق، واستخدمت قرابة مليوني عامل في هذه المهمة، ومهدت الطرق بين البلاد، وكانت في بعض الاحيان تشق الجبال الوعرة والهضاب العالية لخلق الطرق الممهدة بين بعض البلاد وبعضها الآخر، وشيدت عدة قصور فخمة زينت جدرانها واحاطتها بالحدائق الفيحاء والفراديس الغناء

ومن الاقوال المعزوة اليها قولها:

« لقد خلعت على الطبيعة صورة امراة، ولكن اعمالى قد فاقت اعمال أشجع الرجال، فحكمت امبراطورية نينوى التى تمتد شرقا حتى نهر هيهانام وجنوبا الى أرض العطر والمر، وشمالا الى بلاد السيثيان والصوجدبان

« ولم ير قبلى أحد الاشوريين البحر الكبير، فأنا ابصر بعيني أربعة بحور، تعترف كل شواطئها بسلطاني، واكرهت الانهار الضخمة على أن تصب طبقا لارادتي، واجريت ماءها لاخصاب الاراضي التى كانت من قبل قاحلة جرداء لا يعمرها انسان، واقمت البروج المنيعة، ومهدت الطرق التى لم يطأها من قبل الا وحش الغاب. وفي وسط هذه الاعمال العظيمة لم انس أني امراة، ووجدت لنفسي مجالات اللهو والسرور »

ولقد كان حقا اعظم مفاتن سميراميس التى اشتهرت بها، الى جانب روعة جمالها، هي شهواتها الجنسية القوية، وان كانت المصادر التاريخية لم تات على ذكر تفاصيل مغامراتها وعلاقاتها الغرامية، ولكن مما لا ريب فيه أن من كانت مثلها امراة رائعة الحسن فتانة المحاسن لا يمكن أن تنسى أنوثتها وجمالها وسط ضجة الحكم، وخاصة وقد أصبحت ملكة شديدة البطش عظيمة السلطان. وقد اشتهرت بأنها كانت من الحزم والحكمة واصالة الراى بحيث كانت تضع الامور في مواضعها الصحيحة، فقد حدث مثلا ذات صباح أن جلست تتزين وتتجمل قبل أن تظهر أمام حاشيتها، واذا بأحد رجالها يقبل عليها مهرولا ويبلغها أن فتنة قد

وقعت بين فريقين من الاهالى ،وانه يخشى أن تسوء العاقبة ، فاندفعت مهرولة ، وهى نصف مدثرة ، وشعرها مبعثر ،وواجهت المشاغبين فى شجاعة وجراة ، وسرعان ماانطفأ لهيب الثورة ، وسكنت النفوس حين رآها القوم واستمعوا الى كلمتها التى القتها عليهم . وفى هدوء عادت الى غرفتها تستكمل زينتها، وترتدى ثيابها

وأرادت سميراميس أن تخضع الهند لسلطانها ، وكانت تعلم أن الهنود يستخدمون الفيلة فى حروبهم وانهم لهذا يتغلبون على اعدائهم ،



اندفعت سميراميس لتخمد الفتنة ، وواجهت المشاغبين فى جراة وشجاعة ، وسرعان ما اطفأ لهيب الثورة

فابتدعت حيلة حربية ارادت بها ان تتغلب على هذه العقبة ، فأمرت بتغطية مائة الف جمل بجاود الثيران السوداء بحيث تبدو الجمال فى صورة فيلة ، وامتطى محارب ظهر كل جمل . واعد ملك الهند جيشا ضخما لملاقاتها ، ثم أرسل اليها رسوله يبلغها رسالة ملك الهند ويسالها : « لماذا اعلنت عليه الحرب، ومن تكون حتى تتجرأ على مهاجمة مملكته ؟ » وفى ردها عليه يبدو واضحا مبلغ اعتدادها بنفسها وبقوتها وجبروتها وصلفها ، اذقالت للرسول :

« اذهب الى ملكك واخبره انى ساخبره بنفسى من اكون ولماذا جئت الى هنا »

وقد نجحت حيلتها اول الحرب، فاستطاعت ان تاسر مائة الف جندى هندى ، وأن تحطم الف مركب من سفن الهنود فى نهر الهندوس ، غير أن الحرب سجال ، وأدرك ملك الهند حقيقة الحيلة ، وسرعان ما هاجم جيش سميراميس بفيلته الحقيقية ، ولم يسع جيشها الا ان يتبدد امام هجوم الفيلة والا ان يتفرق ويفر جنوده ، وجرحت سميراميس نفسها ، ولكنها فرت مع فلول جيشها وعبرت نهر الهندوس ، ولم يعبر ملك الهند وراءها لتحذير كهنته له من هذه الخطوة ، ومن ثم تم بينهما الصلح على ان يتبادلا الاسرى ، وتعود الى بلادها

وعلمت الملكة سميراميس عند عودتها ان ابنها نيناس قد تآمر عليها ، وكان قد سبق ان سمعت نبوءة تقول انه حين يتآمر عليها ابنها يكون قد حان الوقت لاختفائها من بين الهالكين ، واستقبالها بين الخالدين . فتنازلت عن العرش ، وتقول بعض الاساطير انها قتلت نفسها وتقول اسطورة اخرى انها انها تحولت الى حمامة وطارت مع سرب من الحمام ، ومن ثم اعتبر الاشوريون أن سميراميس خالدة وأن الحمام مقدس

وقد ظلت تحكم البلاد مدة اثنين واربعين عاما

وقد اكتشف عام ۱۹۰۹ عمود حجرى يصف سميراميس بانها كانت احدى نساء الملك سامسى اوار « ملك العالم ، ملك الاشوريين، ملك جهات الدنيا الاربع » ويدل ما دون على هذا العمود الحجرى ان سميراميس احتلت مكانة مرموقة ، وكان سلطانها عظيما من المرجح انه دام حقبة طويلة من الزمن فلم تكن سميراميس خرافة او اسطورة ، ولكنها كانت ملكة عظيمة

أوجيني ... الامبراطورة اللعوب

بقلم الاستاذ طاهر الطناحى

« لا تضيعى الوقت سدى فقد دخل الثائرون القصر الامبراطورى وحان وقت الهرب ! »

فأجابت الامبراطورة أوجينى سفير ايطاليا السنيور نيجرا فى هدوء وتجلد وهى تكبت شعورها بالحزن والاسى :

– اذن ، لنودع أصدقاءنا قبل الرحيل !.

ودخلت الامبراطورة غرفة الاستقبال وهى تتكلف الابتسام وشرعت فى توديع الحاضرين ، غير أن البرنس مترنيخ سفير النمسا أسرع اليها ، ودفع بها الى الباب لتخرج دون أن تودع باقى الحاضرين ، ثم أغلقه وراءها فى عنف واذلال . وكانت هناك عربة فى انتظارها فاستقلتها وأسدلت نقابا على وجهها حتى لا يراها أحد ، ولما بلغت الشاطىء أبحرت على ظهر اليخت المعد لها ، وذهبت هاربة الى انجلترا

وكان زوجها الامبراطور نابليون الثالث قد هزم فى الحرب البروسية عدة هزائم انتهت بأسره وبحصار باريس سنة ١٨٧٠

وقد عزا بعض المؤرخين هذه الهزائم الى أوجينى التى كانت بمثابة المستشار لهذا الامبراطور فى سياسته الداخلية والخارجية ، فقد كانت هذه الحسناء الفاتنة امرأة قوية الشخصية مغامرة . لاتشير على زوجها الامبراطور الا بسلوك أصعب الطرق . وقد تولت الحكم نيابة عن زوجها فى ثلاث مناسبات غاب فيها الامبراطور عن العاصمة الفرنسية فى الاعوام ١٨٥٩ ، ١٨٦٥ ، ١٨٧٠ لأن الامبراطور نابليون الثالث كان مفتونا بها وبما كانت عليه من فطنة وذكاء ، وكان تأثيرها عليه شديدا أدى الى خضوعه لمشورتها فى المسائل الكبرى ، وذلك على الرغم من أنها لم تكن فرنسية الاصل ، فقد كان اسمها مارى أوجينى اجناس أوجستين دى مونتجو ابنة دون سبريانو جوزمان كونت تيبا ، وقد ولدت فى مدينة غرناطة الاسبانية عام ١٨٢٦ ، وكانت امها ابنة وليام كيركباتريك القنصل



الامريكى فى مدينة ملقا وهو اسكتلندى الاصل ولكنه استوطن أمريكا وتجنس بالجنسية الامريكية

قضت أوجيني عهد الطفولة فى اسبانيا ، ثم انتقلت مع أمها واختها الى فرنسا فى الثامنة من عمرها . وتلقت علومها فى المدارس الفرنسية ، وتعلمت عدة لغات هى : الاسبانية لغة أبيها ، والانجليزية لغة أمها ، والفرنسية لغة البلد الذى هاجرت اليه

وفى شهر نوفمبر عام ١٨٥٢ دعيت أوجيني هى وأمها الى حفلة فى مدينة فونتنبلو ، ظهرت فيها أوجيني كفارسة حسناء تحسن ركوب الخيل، ففتن جمالها قلوب الحاضرين وفى مقدمتهم الامبراطور نابليون الذى كان يرأس الحفلة ، فأعجب بها اعجابا شديدا ، وأخذ هذا الاعجاب يتطور حتى استحال الى حب جارف عنيف أدى الى زواجه بها فى يناير سنة ١٨٥٣ ، وأقيمت لها حفلة زفاف كبرى فى كنيسة نوتردام لم تشهد فرنسا حفلة مثلها فى ابهتها وفخامتها ومشاهدها الرائعة . ولما انتهى الاحتفال ، صحبها نابليون الثالث الى قصر التويلرى


اسماعيل باشا

وقد تضاربت مشاعر أفراد الشعب الفرنسى بازاء هذا الزواج ، فالبعض قد حبذه ، لان الامبراطور تزوج المرأة التى أحبها، وهى وان لم تكن فرنسية ، فهى سليلة اسرة كريمة المحتد . وكان البعض الآخر يعترض على هذا الزواج ، ويرى انه كان على الامبراطور ان يختار زواجا سياسيا يقوى به مركز فرنسا ، كما كان العهد قديما بين ملوك اوربا

وعلى الرغم من اعتراض المعترضين ، فقد شاء التاريخ أن تجلس الفتاة الحسناء أوجينى الى جانب نابليون الثالث على عرش فرنسا الامبراطورى ، تسيطر على الامبراطور وعلى من حوله بجمالها الفتان ، وشخصيتها الجذابة، وفطنتها الخلابة ، وعباراتها العذبة ، وحديثها الشيق ، ورأيها الحصيف

وقد استطاعت أن تجعل نابليون الثالث يمحو ما كان بين انجلترا وفرنسا من عداء قديم بالتحالف بين الدولتين . ولكى توطد هذا التحالف سافرت مع زوجها الامبراطور الى انجلترا لزيارة الملكة فيكتوريا فى قصرها بلندن ، فاستقبلتهما ملكة انجلترا وزوجها ألبرت استقبالا حافلا وأقامت لهما عدة حفلات باهرة ، وبعد مدة وجيزة ردت الملكة فيكتوريا وزوجها الزيارة للعاهلين الفرنسيين ، كان لهذه المودة التى وطدتها أوجينى مع الملكة فيكتوريا أثرها فيما بعد حين لقيت محنتها فى الحرب السبعينية مع زوجها ، فقد عطفت عليها فيكتوريا واستضافتها فى بلادها ، وخلعت عليها كل وسائل الاحترام والتكريم

وفى ١٦ مارس عام ١٨٥٦ وضعت أوجينى ابنا أطلق عليه لقب «الامير الامبراطورى» ، كما أطلق عليه لقب «ابن فرنسا» .

ولقد كانت أوجينى نموذجا رائعا تقتدى بأناقتها وأبهتها نساء أوروبا وعلى الرغم مما كانت تعيش فيه من أبهة وملك عريض ، وما كان لشخصيتها من تأثير فى الخاصة والعامة ، فقد كان للامبراطورية الفرنسية الثانية خصوم يريدون القضاء عليها وعلى عامليها . وقد حدث أنها وزوجها كانا يمتطيان مركبة تنطلق بهما الى دار الاوبرا الايطالية فى أوائل يناير عام ١٨٥٦ ، فالقيت عليهما ثلاث قنابل أريد بها اغتيالهما انفجرت تحت العجلات ، وذهبت بأرواح بعض أفراد الحاشية ولم يصابا بأذى . وقد قال الامبراطور فى كلمة ألقاها فى البرلمان الفرنسى :

« أشكر الله الذى منح الامبراطورة ومنحنى حمايته ورعايته ، وانى لحزين جدا لأن مؤامرة أريد بها اغتيال حياة اثنين أفضت الى الذهاب بأرواح كثيرة »

نابليون الثالث

وكان عام ١٨٦٩ ، فدعى الامبراطور نابليون الثالث والامبراطورة أوجينى الى حفلة افتتاح قناة السويس ، فى ١٦ نوفمبر من تلك السنة كما دعى كثير من ملوك أوربا وأمرائها الى هذه الحفلة ، فلبت الامبراطورة الدعوة وتخلف الامبراطور فلم يحضر الاحتفال

وكانت الامبراطورة أوجينى تواقة أن ترى مصر ، وترى قناة السويس ، وأن ترى ذلك الرجل الذى اشتهر بالبذخ والاسراف حتى أصبحت بلاده غارقة فى الديون ، والذى عرف عنه انه بحاثة عن متعه وملاذه أينما كانت ، وكيفما كانت العواقب

من أجل هذا رحلت الامبراطورة أوجينى قبل موعد الاحتفال بثلاثة أسابيع ، فوصلت القاهرة فى الاسبوع الثالث من شهر اكتوبر عام ١٨٦٩ ، وبادر الخديو اسماعيل فاحتفل باستقبالها الاحتفال الذى أراد به أن يحدث أثره الاول فى نفسها ، وأنزلها فى قصر الجزيرة ، وحاطها بكل ضروب المتعة التى تصبو اليها كل نفس ، وقام بشؤون ضيافتها بصورة فاقت كل ما ألفه الملوك وأعاظم العواهل فى العالم

وكان قد سبق أن قيل له انه لابد لها من زيارة الاهرام وأبى الهول ، وان الطريق لذلك الاثر الفرعونى العظيم غير ممهد ، فأصدر أمره بتمهيده وجعله صالحا لسير المركبات وزراعة الاغراس الوارفة الظلال على الجانبين . وما كان اسرع وزير الاشغال ومدير الجيزة الى اصدار أوامرهما بتسخير عدد كبير من الاهالى الذين دأبوا على العمل ليلا ونهارا حتى تم تمهيد هذا

الطريق الطويل فى أقل من ستة أسابيع ، وغرست الاشجار على الجانبين، فاظلته وجملته وجعلته من أجمل الطرقات

ومع أن أوجيني كانت فى ذلك الوقت فى الثالثة والاربعين من عمرها، الا انها كانت لا تنفك ساحرة الجمال ، خلابة الحسن ، رائعة القوام . كأنها لا تزال فى عقدها الثالث ، ففتن اسماعيل بحسن دلها ، وسحر لحاظها ، وفتنة جمالها ، وهو الرجل المفتون دائما بكل امرأة جميلة ، كائنة من كانت ، يسبيه الجمال ، ويسحره الحسن والرشاقة ، فلازمها اسماعيل ، وأغرم بها غراما ، وأعد لها كل أسباب المتعة والراحة ، وأحاطها بحفاوته ورعايته . وأقام لها معالم الابتهاج وأسباب الابهة والفخامة التى تأخذ بلبها وتسحرها ، حتى أصبحت أوجينى نشوانة بتلك المظاهر التى لم ترها ولم تحلم بها

▭

وبعد أن قضت أسبوعا فى القاهرة ، أعدت لها العدة لرحلة نيلية الى صعيد مصر لرؤية آثار الفراعنة فى الاقصر واسوان ، ورافقها اسماعيل فى تلك الرحلة ، وكانت رحلة حافلة بكل ضروب الترف والمسرات

ووقفت أوجينى أمام تلك الآثار الخالدة ، وراحت ترنو اليها بأنظارها وخيالها يسبح فى اجواز الفضاء ، وتتخيل ما كانت عليه ملكات الفراعنة من أبهة وعظمة ، وما نعمن به من متع الحياة

وعادت الضيفة الجميلة ، والمضيف من هذه الرحلة المتعة . ولما وصلا الى القاهرة بادر اسماعيل بالرحيل الى الاسكندرية ، واستقل يخته المحروسة الى بورسعيد ليكون فى استقبال ضيوفه من الملوك والامراء . وكان أول الوافدين منهم أمير هولندا وأميرتها ، ثم امبراطور النمسا والمجر ، ثم البرنس فودريك ولهلم ولى عهد بروسيا . وفى يوم ١٦ نوفمبر أقبلت السفينة « ايجل » ــ النسر ــ تحمل الامبراطورة الحسناء أوجينى، رئيسة الاحتفال ــ يحف بها النبلاء والنبيلات والوصيفات

وأعد لها اسماعيل مظاهرة ضخمة عظيمة لاستقبالها ، فتجمع على الارصفة فى نظام بديع ضباط الجيش وأركان الحرب ، ورجال الموسيقى وجماهير غفيرة من الاهالى ، والاعلام تعلو الرؤوس ، والمدافع تطلق قذائفها تحية لضيفة أسماعيل الساحرة ، حتى لم يسع أوجينى الا أن تهتف لمن حولها بقولها : « يا لله ! لم ر فى حياتى شيئا أجمل من هذا ! »

وبدأ الاحتفال العظيم الذى تكلف ملايين الجنيهات ، والذى ناءت من وطاته خزانة مصر ، فى سبيل مظهر كاذب ، وفى سبيل متعة زائلة عابرة

ثم انطلقت بها باخرتها تعبر قناة السويس ، حتى وصلت الى الاسماعيلية ، وكان اسماعيل قد أقام هناك قصرا خاصا ، فلما وصلوا الى الاسماعيلية وانتهى الاحتفال ، وتقدم اسماعيل الى ضيوفه يشكرهم واحداً واحدا على

تفضلهم بتلبية دعوته ، ذهب الى ذلك القصر الجديد

وبعد أن أيقنت أوجيني أن اسماعيل قد نال قسطا من الراحة ، امتطت ظهر جواد مطهم ، وانطلقت الى ذلك القصر ، لتشكر الخديو على حفاوته العظيمة بها ، تلك الحفاوة التي لن تستطيع نسيانها ، والتي ستظل ماثلة في ذهنها مدى حياتها

أما باقي الملوك والامراء فقد آثروا أن يذهبوا الى قصر اسماعيل للشكر بعد الظهر • وفي المساء أقام اسماعيل حفلة راقصة عظيمة تحت رياسة الامبراطورة أوجيني

عادت الامبراطورة الحسناء من حفلة افتتاح قناة السويس نشوانة بهذه الفخامة والابهة والمظاهر الضخمة والمتع الشائقة في تلك الليالي التي دونها ما روته ليالي ألف ليلة وليلة من عجائب وغرائب قدمها اسماعيل لهذه الحسناء الفرنسية في حفلة القناة التي حفرت بدماء الشعب وأرواحه

ولم يمر عام حتى كانت الحرب السبعينية بين بروسيا والامبراطور نابليون •

وكانت أنباء الهزائم تتوالى على مسامع الامبراطورة أوجيني وهي قابعة في قصر التويلري ، فأخذت تتجلد وتبدو للانظار ثابتة الجنان • وقد أرادت أن ترتدي ثياب الركوب ، وتمتطي ظهر جواد ، وتنطلق به في شوارع باريس تحث الناس على القتال والنضال . فلما بحثت عن ثوبها ، وجدت ان الخدم قد انتهزوا فرصة الاضطراب وسرقوا كل ثيابها ، فلم يسعها أن تفعل ما أرادت • ولو ان الامبراطورة قامت بما اعتزمته لكان تاريخ تلك المواقع أقل خطة وخساسة مما دونه التاريخ ،

وقد أظهرت أوجيني في هذه الساعة الرهيبة هدوءا وشجاعة وثبات جنان أثارت اعجاب كل من رآها وأخيرا هربت الى انجلترا

واكرمتها الملكة فيكتوريا ، وأنزلتها في قصر تشرلهرست حيث وافاها زوجها وابنها لويس نابليون ، وفي هذا القصر قضى الامبراطور نابليون الثالث بقية حياته حتى وافاه أجله ، ودفن في أرض انجليزية

أما الابن لويس نابليون فقد لقي حتفه في احدى المعارك ضد الزولو عام ١٨٧٩ ، وفي العام التالي ذهبت أوجيني الى المكان الذي دفن ابنها فيه ، وعادت برفاته ودفنتها الى جانب رفات أبيه

□

ولقد قضت أوجيني بقية حياتها في عزلة تامة لاتتصل بأحد ، ولا يتصل بها أحد ، وكانت تتبع الاحداث التي تجري في فرنسا وهي مقيمة في الفيللا التي شيدتها في كاب مارتن على شواطىء الريفيرا ، ولكنها لم تكن تتدخل في السياسة الفرنسية البتة

وفى سنة ١٩٠٥ زارت مصر الامبراطورة (السابقة) أوجينى . ونزلت فى فندق سافوى ببورسعيد متنكرة ، فاقترح الشيخ على يوسف على الشعراء أن ينظموا فى وصف هذه الامبراطورة ، ويوازنوا بين مجيئها الى مصر فى هذه السنة ، لاتلتفت اليها الانظار ، ومجيئها قبل ذلك سنة ١٨٦٩ فى افتتاح قناة السويس ، فنظم حافظ ابراهيم فى ذلك قصيدة جاء فيها :

أين يوم القنالِ يا ربةَ التا ج ويا شمسَ ذلك المهرجانِ
أين مجرى القنال أين مميت الـ ـمال أين العزيزُ ذو السلطان
أين ذا القصرُ بالجزيرة تجرى فيـه أرزاقُنا وتَحْبُو الأمانى
فيه للنحس كوكب مسرعُ السَّيْـ ـرِ ، وللسعد كوكبٌ متوانِ
كنتَ بالأمس جنةَ الحور يا قصـ ـرُ ، فأصبحتَ جنةَ الحيوانِ
خطر الليثُ فى فنائك يا قصـ ـرُ ، وقد كنتَ مسرحاً للحسانِ
إن أطافت بك الخطوبُ فهذى سنةُ الكونِ من قديم الزمانِ
ربَّ بان نأى ، وربَّ بناءٍ أسلمته النوى الى غير بانِ
تلك حالُ الايوان يا ربة التا ج ، فما حال صاحب الايوانِ
قد طواه الرَّدى ولو كان حياً لمشى فى ركابك الثقلانِ
إنْ يكنْ غابَ عن جبينك تاج كان بالغرب أشرفَ التيجانِ
فلقد زانك المشيبُ بتاج لا يدانيه فى الجلال مُدانِ
كنت بالأمس ضيفةً عند ملك فانزلى اليوم ضيفةً فى خانِ
واعذرينا على القصور كلانا غيرته طوارىءُ الحدثانِ

وبعد أن قضت أياما فى بورسعيد استعادت فيها ذاكرتها تلك الايام الذهبية والليالى الاسماعيلية التى مرت بها السنون كما تمر الاحلام عادت الى انجلترا . وكانت بين حين وحين تقوم بزيارات الى بعض عواصم أوربا ماعدا فرنسا حتى كانت سنة ١٩٢٠ ، فقامت بزيارة ملكة أسبانيا ، وقد أخذت السنون من صحتها ونشاطها ، وهناك فىمدريداشتدعليها المرض، فقضت نحبها فى ١١ يوليو من تلك السنة وانطفأت تلك الحياة التى امتلأت بالاحداث الكبرى ، ولعبت صاحبتها دورا خطيرا فى السياسة الاوربية ، وكان لها من فتنتها وسحر جمالها وتأثيرها فيمن حولها من امبراطور ووزراء ورجال أقوى أداة وأعظم سلاح



مدام كورى

أخلد فاتنات التاريخ

بقلم الدكتور عبد الحليم منتصر

عميد كلية العلوم بجامعة عين شمس

اذا كانت كليوباترا او حتشبسوت او الزبا او غيرهن من النساء قد فتن حفنة من الرجال ، فان فتنة الذكاء والعبقرية والانتاج العلمى الرفيع ، هى الفتنة الخالدة ...

من الخير أن نتفق أولا على ما نقصده بالفتنة ، وهل نعنى بها سحر العيون ، وجمال القدود ، وحسن القوام، وما الى ذلك من صفات جثمانية، أم نعنى بها أثر هذه الفتنة على الرجال عامة ، ومشاهيرهم فى التاريخ بصفة خاصة . أو نعنى بها فتنة العلم ، والعبقرية ، والذكاء ، والانتاج العلمى الرفيع الذى يخلد بصاحبه على التاريخ ، وخاصة اذا كان هذا الانتاج ذا أثر على الانسانية كلها ، لا على رجل من الرجال أو شعب من الشعوب أو أمة من الامم ، ولا مراء فى أن النوع الاخير من الفتنة هو الاخلد والابقى ، وهو الاعم نفعا ، والاطيب ذكرا

واذا كانت كليوباطرا أو حتشبسوت أو الزباء أو غيرهن من النساء ، قد فتن حفنة من الرجال هنا وهناك ، فليس ثمة دليل على أن كلا منهن كانت فاتنة عصرها من بين نساء الارض طرا فى ذلك الزمان ، فضلا عن أن مقاييس الجمال ليست واحدة فى كل عصر وآن ، وليست واحدة عند كل الشعوب ، أما مقاييس العبقرية والذكاء والانتاج العلمى الرفيع الذى يعم نفعه ، فما أظن أن هناك خلافا بشأنها . فلن تجد من يمارى فى عبقرية ابن سينا وابن رشد وابن الهيثم وأرسطو وسقراط ونيتشه ونيوتن وأنيشتين ومن اليهم من

عباقرة التاريخ وقادة الفكر على مر العصور والدهور · ولكنك ستجد حتما من يجادل فى جمال كليوباطرة أو حتى فينوس أو غيرهما من ربات الجمال ، فالجمال مسألة خلافية الى حد كبير ، فمن تفتن هذا قد لا تفتن ذاك . ثم ان أثر هذه الفتنة يتوقف على مدى الاستجابة لهذا الجمال والاحساس به ، وهى استجابة محدودة واحساس موقوت

فاذا كان الامر كذلك ، وانه لكذلك فيما يبدو — حق لنا أن نعد مدام كورى أخلد فاتنات التاريخ طرا · لقد استهواها العلم ، فوهبت حياتها له . فرفعها الى أعلى مراتب الخلود ، وُلدت فى سنة ١٨٦٧ ، وشغفت منذ حداثتها بالقراءة والاطلاع ، توسم فيها « مندليف » الذكاء والنشاط، وتكهن لها بمستقبل علمى بارع · وفى سنة ١٨٩١ سافرت من وطنها بولندا الى باريس، لتلتحق بجامعة السوربون طالبة نابهة ، ولكنها فقيرة، تستأجر غرفة متواضعة فى حى فقير ، تأوى اليها اذا جن الليل ، حاملة معها ما يلزمها من ماء وغذاء ووقود ، وانها لتعمل فى كلية العلوم عاملة مأجورة تغسل الاوانى وتنظف المعامل ، فيساعدها أجرها على سد نفقات التعليم

ثم لقيت « مارى » وهذا اسمها « بيير كورى » ، فشغفها حبا، وأعجب هو بذكائها ، وأعجبت هى بعلمه ورقته ودماثة خلقه ، عملت مساعدة له حينا ، ثم تزوجته ، وطفقت تواصل الدرس والبحث بمعاونة زوجها وفى معمله ، الى أن وفقت الى كشف كان له أعظم الاثر وأخلده · لقد أنبأها « بيكرل » أنه كشف أن بللورات اليورانيوم تؤثر على الالواح الفوتغرافية ، وأن خام « بتشبلند » له نفس الاثر ولكن بدرجة أشد · فهزتها هذه الانباء بعد أن استرعت انتباهها وتفكيرها ، ما سر هذا الاثر على الالواح الفوتغرافية . وما هى الوسيلة لاستجلاء غوامضه ، وانها لتنقل الى زوجها أنباء هذا الكشف وانها لتغريه بالبحث معها فى هذا الموضوع ، وانها لتراوده ليترك بحوثه فى المغناطيسية ويعاونها فى بحوث هذه العناصر التى عرفت فيما بعد بالاشعاعية ، وانها لتقترض المال لاجراء هذه البحوث ، وانها لتطلب طنا من صخور هذه الخامات ، وانها لتواصل الليل بالنهار لفصل هذا العنصر، الذى رأت بثاقب نظرها انه سيكون له شأن أى شأن

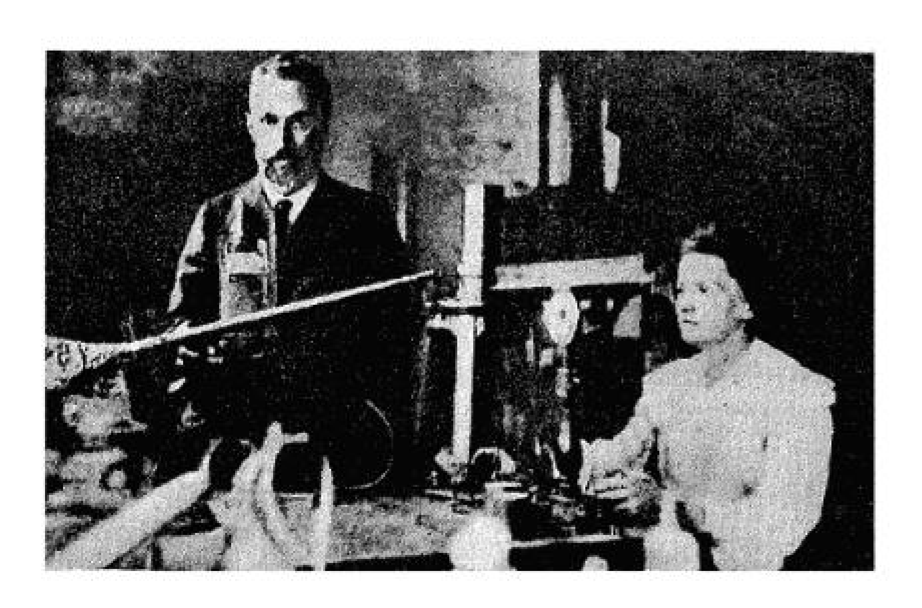
لقد ظلت تواصل البحث أربع سنوات تباعا ، حتى أذن الله أن يكون هذا الكشف الرائع على يديها ، ففى

سنة ١٨٩٨ كشفت مدام كورى عنصرا أقوى من اليورانيوم ، لقد أسمته بولونيوم نسبة الى وطنها «بولندا» وانها لتكتب فى مذكراتها: « ان أسعد أيام حياتى تلك التى أمضيتها في هذا المعمل المتواضع» . نعم فقد كان معملها يشغل غرفة لتشريح الموتى ، وكان الرعب يستولى عليها عندما يجن الليل وانها لدائبة على العمل فيه . واذا بهذه البواتق والانابيب تستحيل مشعة متالقة فى الظلام ، واذا بها تكشف عنصرا آخر أقوى أثرا من سابقيه ذلك هو «الراديوم» . ذلك العنصر الذى أحدث انقلابا فى علوم الطب والكيمياء والطبيعة والذرة . هذه الاملاح المشعة ، التى تنطلق منها دقائق صغيرة ، هذا العنصر الذى يعتبر أغلى المواد المعروفة ، فجرام واحد منه يساوى عدة آلاف من الجنيهات ، هذا العنصر الذى يقتل الميكروبات ويعالج الامراض المستعصية كالسرطان ، هذا العنصر الذى ينبغى الحذر فى استعماله حتى لقد أصيب بيكرل نفسه بحرق مؤلم فى صدره بسبب وضعه أنبوبة كان بها قليل منه فى جيبه ، هذا العنصر الذى تنفذ أشعته خلال الزجاج والصفائح المعدنية الرقيقة ، وانما يحفظ فى خزانات من الرصاص أو الفضة

على أن الدهر الذى عبس لمدام كورى ردحا طويلا ، عاد يبتسم لها برهة ، اذ عين زوجها أستاذا للطبيعة فى جامعة السربون ، وعينت هى مدرسة بمدرسة المعلمات العليا فى باريس . وتقدمت برسالة لنيل درجة الدكتوراه فى العلوم ، وقد سجلت لجنة الفحص اعجابها بجهود مدام كورى وكشوفها الرائعة . وقررت اللجنة ان رسالتها أعظم بحث علمى قدم لنيل هذه الدرجة . وكانت اجاباتها على الاسئلة الشفوية موضع اعجاب وتقدير جميع من حضروا هذه المناقشة الفذة

وقد عرضت كل من حكومتى انجلترا وفرنسا ، أن تمنح مدام كورى الاوسمة والنياشين ، تقديرا لجهودها فى البحث العلمى ، ولكنها رفضت ، مفضلة أن تمنحها الدولة معملا لاجراء بحوثها وتجاربها . وفى عام ١٩٠٣ نالت مدام كورى بالاشتراك مع زوجها والاستاذ بيكرل جائزة نوبل فى الطبيعة ، وهى جائزة عالمية مالية كبيرة موقوفة على المبرزين فى البحوث العلمية . وقد ساعدها ذلك على تسديد بعض الديون التى تراكمت عليها بسبب الانفاق على البحث العلمى

لقد كانت مدام كورى تستطيع أن تكون ثروة طائلة ، لو أنها أرادت استغلال كشفها العلمى الرائع ، ولكنها كانت تتبرع بكل جرام



مدام كورى وزوجها فى معملهما يواصلان الابحاث التى افادت البشرية

تستخرجه من أملاح الراديوم ،وكان آنئذ أغلى عنصر فى الوجود ، كانت تهبه للمرضى يعالجون به فى المستشفيات • انها لم تحاول الاثراء على حساب العلم والمعرفة وانما آثرت أن تظل عاملة فى حقل البحث العلمى، عن أن تعيش عيشة الترف والدعة• ولو قد آثرت الاخرى لنسيها التاريخ لقد فضلت الخلود العلمى الذى كتب لها بفضل صبرها وجدها ومثابرتها

ولقد كان موت زوجها فى سنة ١٩٠٦ أثر حادث مرور فى أحد شوارع باريس صدمة عنيفة لها ، فأمضها الحزن عليه حينا ، الا أنها ما لبثت أن استردت رباطة جأشها، وعادت الى مواصلة بحوثها،وتقدمت لشغل كرسى الاستاذية الذى كان يشغله زوجها ، وكان حدثا فذا فى تاريخ الجامعة أن تتقلد امرأة منصب الاستاذية فى السربون،وأثار تعيينها فى كرسى الاستاذية حنق بعض الحاقدين والشانئين ، فقالوا ان الفضل فى كشف البولونيوم والراديوم انما يعزى الى زوجها لا لها • على أنها لم تلق بالا الى حسد الحاسدين وكيد الكائدين ، وانما استمرت فى بحوثها حتى استطاعت أن تستخلص الراديوم من أملاحه وأن تعين وزنه الذرى، الامر الذى لم

تكن قد وقفت اليه فى حياة زوجها

لقد كانت محاضرتها الاولى فى جامعة السربون مظاهرة علمية رائعة، فغصت قاعة المحاضرات بحشد كبير من كبار رجال الدولة وسيداتها ، وعلى رأسهم رئيس الجمهورية يصحبه ضيفه ملك بلغاريا وزوجته . وكان الاعجاب بالغا بهذه السيدة النحيلة الحزينة، التي تلقى محاضرتها بصوت رزين ونبرات واضحة ، تفيض على الحاضرين من علمها وحسن أدائها ، مما بهر الحاضرين وأخرس الحاقدين

ثم منحت مدام كوري جائزة نوبل مرة أخرى ، فكانت أول من حصل على هذه الجائزة مرتين ، بل كانت الوحيدة بين علماء العالم التي حظيت بهذا الشرف وذلك التقدير مرتين

وفى خلال الحرب العالمية الاولى أقدمت على عمل انسانى عظيم ، لقد جمعت كل ما استخلصته من عنصر الراديوم وأملاحه ، وذهبت به الى « بردو » ، ثم حشدت مائة وخمسين فتاة من بينهن ابنتها « ايرين » وأخذت تعلمهن طرق استعمال الراديوم والاشعة فى العلاج . وقد كافأتها الحكومة الفرنسية بأن أنشأت معهدا للراديوم وعينتها مديرة له ، تقديرا لعلمها وفضلها

هذه السيدة الفاضلة التى منحت العلم والانسانية هذا العنصر النفيس، والتى كان من أعز أمانيها أن يكون لديها منه جرام واحد تتصرف فيه كما تشاء، فى الوقت الذى منحت مستشفيات العالم مائة وخمسين جراما منه . وقد رأى رئيس الولايات المتحدة أن خير هدية يقدمها لها اعترافا بفضلها وتقديرا لجهودها أن يهديها جراما من الراديوم ليحقق بذلك أمنية عزيزة على نفسها لتزيد من بحوثها فى خصائصه ، ولتضيف الى أياديها على الانسانية بتخفيف آلامها وويلاتها عن طريق العلاج به

لقد كشفت بحوث مدام كورى عن آفاق جديدة فى الذرة ومعرفة كنه المادة، وتحقق حلم العلماء فى حقب التاريخ من تحويل المعادن الخسيسة الى نفيسة

لقد عاشت مدام كوري حياة حافلة بالكفاح ولبست تاجا من المجد ، لم تلبسه سيدة من فاتنات التاريخ الاخريات ، وهى فى رأيى أعز على التاريخ وأخلد فيه من فاتناته جميعا ممن اتسمت حياتهن بمعانى أخرى ليس من بينها العلم والمعرفة وخدمة الانسانية عن طريقهما . وكانت سنة ١٩٣٤ خاتمة المطاف بالنسبة لمدام كورى ، حين ألقت عصا التسيار بعد حياة حافلة زاخرة بكل أسباب المجد والخلود

نفرتيتي ملكة النيل

نفرتيتي — الاميرة الجميلة
— هى احدى سبع بنات للامبراطور المصرى امنحتب الثالث ، والملكة المصرية العظيمة « تى » . وقد شبت الاميرة الجميلة لتشهد بوادر انهيار امبراطورية مصر العظيمة ، فقد اهمل والدها الامبراطور العظيم شئون امبراطوريته ، وانغمس فى الملذات ، حتى عجز عن القيام بأعبائه ، فاشرك فى الملك زوجها واخاها امنحتب الرابع ، وتفرغ هو لارضاء شهواته

▭

وجدت الاميرة الجميلة نفسها ملكة فى حياة والدها امنحتب الثالث ، الغارق فى ملذاته . فتلفتت الى زوجها — واخيها — امنحتب الرابع ، ولكن هذا قام بنشر دين جديد لا يعترف الا باله واحد هو « اتون » الشمس . ولم يغضب الكهنة فى أول الامر ، فقد كان الههم « أمون » يمثل اله الشمس أيضا . ولكن امنحتب الرابع لم يتركهم فى سلام ، بل اصر على عبادة الهه وحده ، وتحريم عبادة امون وغيره من الآلهة الاخرى ، فغضب الكهنة

▭

واشفق والده ، امنحتب الثالث ، ووالدته ، الملكة تى ، على ابنهما امنحتب الرابع من غضبة الكهنة ، لتحمسه لمذهبه الجديد ، فاشارا عليه بالهجرة من طيبة ، فهاجر الى تل العمارنة مع زوجته الجميلة نفرتيتي ، واشتركا معا فى بناء مدينة جديدة ، سمياها «أخيتاتون» — أى أفق أتون

▭

وكانت هذه بداية متاعب نفرتيتي ... فبعد ١٢ عاما توفى والدها امنحتب الثالث ، بعد أن انهك صحته فى طلب اللذة . وظهر بعد ذلك شذوذ زوجها امنحتب الرابع ، الذى جاهر بعدائه لكهنة امون ، فانكر الهتهم ، واغلق



معابدهم ، واتخذ لنفسه اسما جديدا هو اخناتون !

▭

وتحول اخناتون عن حبه لزوجته الجميلة نفرتيتي ، وأساء معاملتها ، ونزع الى طريقة العيش التى كان يعيشها أبوه ، والتفت حوله بطانة فاسدة مرتشية متملقة ، ضربت حجابا كثيفا بين الملك وبين الحقائق المؤلمة

▭

ولم تطق الملكة الجميلة تبذل زوجها ، فنشب النزاع بينها وبينه، فهجرت قصرها الخاص ، الى حى « ظل رع » ، واعتزلت الحياة مع أخيها توت عنخ آتون ...

▭

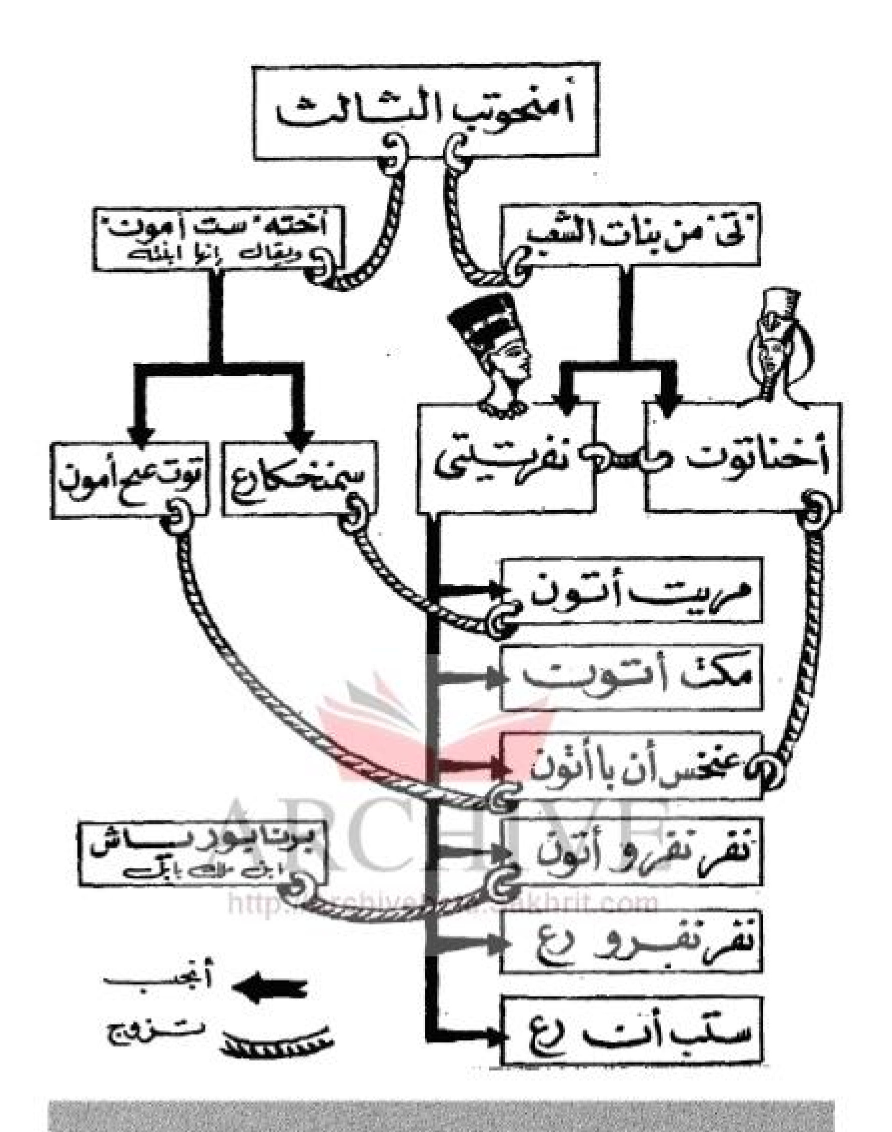
وفى سورة غضبه ، أمر اخناتون بمحو اسم زوجته نفرتيتى من المعابد والقصور ، وتزوج من ابنته «مريت اتون » ، وعاش مع أخيه الخليع سمنكارع .. وزاد فى نفور نفرتيتى أن زوجها اخناتون تزوج ابنة ثانية له هى « عنخس ان با آتون » ..

▭

وتحرجت أحوال المملكة، وحاولت بطانة اخناتون الفاسدة ان تستميل الناس اليه ، وذهب سمنكارع الى



تمثال لاخناتون بوجهه الحالم المتأمل وجسمه النحيل المتهدل



رسم يوضح تسلسل عائلة نفرتيتي ، وهي تتألف من ابيها امنحتب الثالث وزوجته وابنائه وبنات نفرتيتي الست من اخناتون وقد تزوج احداهن توت عنخ آمون

طيبه ليعيد أواصر الود المفقود بين اخناتون وكهنة أمون ، ولكن موجة التذمر بلغت مداها ، وتآمر الناس على الفرعون

□

وعرفت نفرتيتى الحقدعلىزوجها المتورط فىالرذائل والشهوات،فغذت التذمر العام ضده ، وضد أخيها الخليع سمنكارع ، الذى حول عواطف زوجها ، وسلبها الهناءة فى كنفه ... وعولت الملكة الجميلة على الانتقام

وكانت المؤامرة الاولى ، فقد انفض الشعب من حول اخناتون ، وغضب عليه الكهنة ،ودبرتالمؤامرة لاغتياله ، ولكنها فشلت فى آخر لحظة ، بفضل يقظة رئيس شرطة الملك « ماحو » الذى القى القبض على المتآمرين فى اللحظة الحاسمة

□

وفجاة توفى اخناتون ! فقامباعباء الملك من بعده عدوها سمنكارع ، الذى انتقل الى طيبه محاولا استمالة الكهنة اليه ، ولكن نفرتيتى كانت له بالمرصاد ، فلم تبايعه بالملك ولم تعترف له باى حق،واستمالت كاهن بلاطه « آى » ، وقامت بعدة مناورات ديلوماسية بارعة ،بمعونة الكاهن « آى » ، واستنجدت بملك خيتا « ارمتيا » ، وطلبت منه ان يوفد احد ابنائه ، ليكون زوجا لها، ووارثا للعرش

ولكن الامور لم تجر كما اشتهت نفرتيتى ، فقد وثب أنصارسمنكارع على ابن ملك خيتا ، وقتلوه فى الطريق ، فتعقد الموقف ...

□

وفجاة أيضا مات سمنكارع ! فأسرعت نفرتيتى مع اخيها توت عنخ اتون ، واعوانهما ، والكاهن « آى » ، بالعودةالىطيبه،واستولوا على كنوز سمنكارعواثاثهوجواهره، وحرموا اقامة شعائر دينية لدفنه ، وقضوا على الاثر الطيب الذى تركه سمنكارع فى نفس كهنة أمون ،بنشر مخازيه

□

ونصبت نفرتيتى الشاب الساذج توت عنخ اتون ، الذى يبلغ الحادية عشرة من عمره ، ملكا على مصر ، وزوجته من ابنتها « عنخس ان با اتون » ...

□

وانتقل الفرعون الجديد الى مدينة طيبة ، واستمال كهنة أمون ، وغير اسمه الى « توت عنخ أمون » ..

وكافأت نفرتيتى كاهن البلاط « آى » على خدماته ، بأن زوجته من مرضعتها ، ورقته الى رتبة قائد الفرسان !

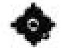


لوحة أثرية تبين اخناتون وزوجته نفرتيتي في جلسة عائلية يعبدان الاله الجديد « آتون » وحولهما اولادهمـــا يمرحون

القيصرة الحزينة

بقلم الأستاذ محمد عبد الله عنان

يذكرك كل شبر من النمسا بامبراطورية هبسبورج العظيمة ، ولا تزال فينا تزهو بقصورها ومنشآتها ومسارحها الامبراطورية الجميلة



قضت الحرب العالمية الاولى على الامبراطورية النمسوية المجرية ، وعلى سلطان آل هبسبورج ، وخرجت النمسا منها جمهورية صغيرة ، لايعدو سكانها ستة ملايين من الانفس بيد أن النمسا ما زالت تزخر بذكريات الامبراطورية التالدة ، من مختلف الصروح والذخائر الفنية العظيمة ، وما زالت فيينا تزهو بقصورها ومنشآتها ومسارحها الامبراطورية الجميلة ، وما زالت ذكريات آل هبسبورج تغمر سائر أنحائها وجنباتها

ويضم قصر « البورج » الامبراطورى كثيرا من هذه

الذكريات ، وهو ما يزال يفتح للزائرين ، يتجولون فى اروقته الصامتة ، ويستعرضون فيما يشاهدونه من آثاره وتحفه عبر الماضى ، وصروف الزمن ، ويتجهون بابصارهم الى تلك الايام التى كانت فيها تلك المعاهد والمغانى تسطع وتزهو بسكانها من الملوك والملكات ، ثم اذا هى اليوم صامتة خالية ، الا من آثارهم وذكرياتهم المترفة المشجية

وانه ليلفت نظرك فى هذا التجوال بنوع خاص ، منظران مؤثران ، غرفة القيصر فرانز يوسف الذى عاش ستة وثمانين عاما ، وحكم ثمانية وستين عاما : باثاثها المتواضع ، وسريرها الحديدى . ومنزين زوجه القيصرة الحسناء الساحرة اليزابيث ، بروعة رياشه ونفاسة تحفه ، واناقته المتناهية ، وقد علقت فيه صورة رائعة للقيصرة ، يشع منها الجمال والسحر العميق

كانت هذه الاميرة البارعة فى الخلال والحسن ابنة للدوق ماكس البافارى ، وامها لويزا ولهلمينا ابنة مكسمليان الاول ملك بافاريا . وقد ولدت فى سنة ١٨٣٧ ، وقضت طفولة سعيدة ناعمة . وعنيت والدتها بتنشئتها منذ الحداثة فى الآفاق الطلقة ، واطلقت لها العنان فى الطبيعة الحرة ، تركب الخيل ، وتخوض الرياضات الشاقة ، وتأثرت اليزابيت فى نفس الوقت بنفسية والدها وعواطفه أيما تأثير ، فورثت عنه النزعة الحرة وحب الفنون . وكانت ذهنا هائما يفيض بالاحلام والمثل ، تقرض الشعر ، وتجيد الرسم ، وتتمتع فضلا عن جمالها الساحر ، بمواهب عقلية بديعة

وقد شاء القدران تجلس اليزابيت على عرش من أعظم واعرق العروش الاوربية هو عرش آل هبسبورج ، وذلك بزواجها من القيصر فرانز يوسف ، امبراطور النمسا والمجر فى سنة ١٨٥٤ . ولهذا الزواج قصة طريفة . ففى صيف العام السابق التقى القيصر الشاب فرانز يوسف ووالدته الارشيدوقة صوفى فى مصيف ايشيل بخالته الاميرة لويزا ولهلمينا ، وابنتيها اليزابيت أو (سيسى ، وهو اسمها المدلل) وهيلين . وكان من المفهوم بين الاختين ان فرانز سيقترن بهيلين الاخت الكبرى ، ولكن القيصر سحرته خلال « سيسى » ، وجمالها وكانت اليزابيت يومئذ فى عامها السادس عشر ، وقد تفتح جمالها وازدهر ، وكانت توصف عندئذ بانها أجمل اميرة أوربية . وهكذا آثرها القيصر الفتى على أختها الكبرى ، وتمت



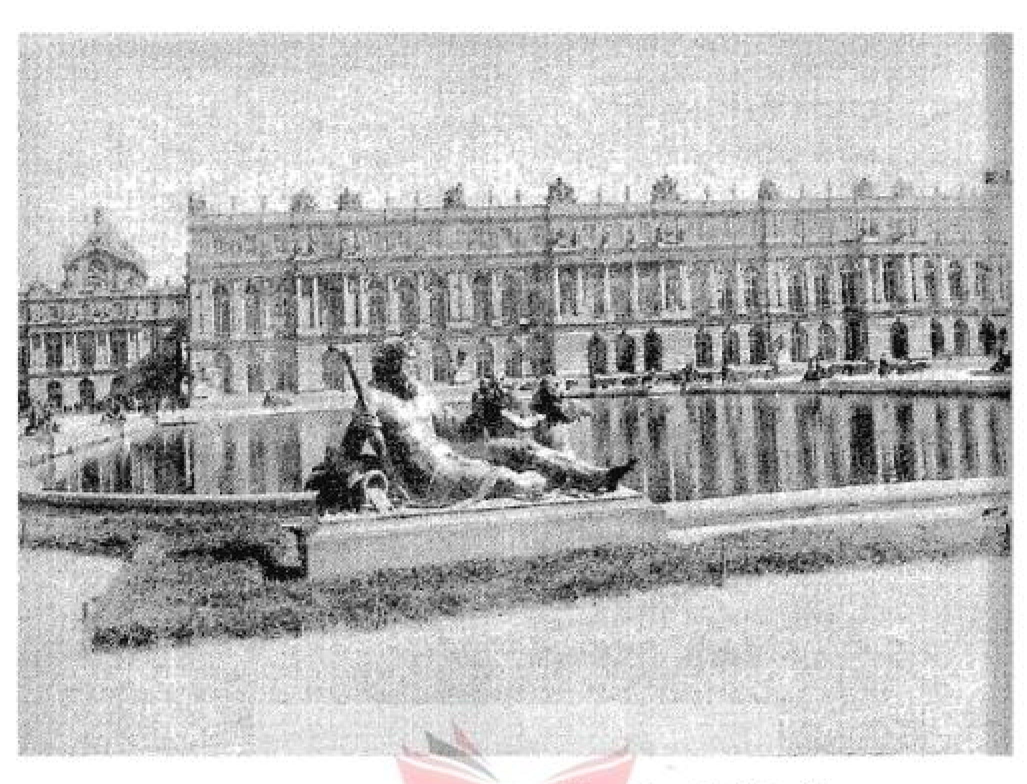
القيصر فرانز يوسف

الخطبة فى ايشيل ، وتم الزواج فى العام التالى (سنة ١٨٥٤) وغدت « سيسى » امبراطورة النمســا والمجر

وبدأ الزواج سعيدا فى ظل الحب والوئام . ولــكن سرعان ما بدأت أعراض الخـــلاف والتنافر بين الزوجـــين . ذلك ان القيصر كان محافظا بطبيعته وبحكم تقاليد أسرته ، وكانت أمه الارشيدوقة صوفى أشد منه محافظة ورجعيـــة . وكانت القيصرة الفتية على نقيضهما ذهنــا حرا جريئا ، طليقا من قيود التقاليد القديمة ، وقد عشقت هذه الحرية منذ الحـــداثة . فكانت تميل الى الصيد والفروسية وممارسة انواع الرياضة المختلفة . ولكنها مذحلت فى قصر شونبرون (وهـــو القصر الملكى الصيفى فى ضاحيـــة فيينا) شعرت أنها تعيش فى جو تغشاه القيود والتقاليد الصارمة ، وشعرت من جهة أخرى بأن زوجها القيصر اذا كان يميل الى ارضائهــا نوعا والتــاهل معهــــا ، فان والدته الارشيدوقة صوفى ، كانت تميـــل فى معاملتها الى الجفاء والخشونة ، ولا تنفك عن نقدها ولومها ، ومحاولة الاعتراض على ميولها واهوائهـــا ، واخضاعها لرسوم البلاط وتقاليده ؛ على ان القيصرة الفتية لم تأبه لهذه الاعتراضات ، بل لبثت على سجيتها وميولها الحرة ، تفعل ما يروق لها ، وتجانب الحياة والحفلات العــامة ، وتبدو فى حفلات البــــلاط بالصور التى تروقها ، وكانت تمضى دائما فى مزاولة رياضتها المحبوبة ، الصـيد وركوب الخيل ، محافظة على صحتها ورونقها ، وكانت تدخن « السيكار » حتى لقد انشأت بذلك تقليدا ذاع بين سيدات الارستقراطية الفينية. وكان البلاط القيصرى المحـــافظ يأخذ عليها هــذا المسلك ، وكذلك المجتمع الفينى الرفيع يغضبه سلوكها ونأيها عن مشاركته . وكانت هــذه القيصرة الساحرة ، تزهو بجمالهــا الرائع ، وأناقتها التى غدت مضرب الامثال ، ولا تنزل عن شىء ممــا تقتضيه المحـــافظة على جمالهــا ورشاقتهـــا . فكان متزينها بقصر البورج ، معرضا لمنتهى ما عرف فى هذا العصر من آيات الترف والزينة والاناقة ، وهو ما يزال حتى اليوم ، بالرغم من كر الزمن ، يبدو قطعة فنية رائعة

□

وفى ٢١ اغسطس سنة ١٨٥٧ ، وقع بالبلاط النمسوى حادث سعيد ، وهو مولد ولى العهد ، رودلف فون هـــبسبورج . وكانت القيـــصرة اليزابيت قد رزقت قبـــل مولده بابنتين ، توفيت اولاهما فى المهد ، وولدت الثانية وهى الارشـيدوقة جزيلا فى ســنة ١٨٥٦ ، وتزوجت فيما بعد بالامير ليوبولد البافارى وكان مولد ولى العهد سببا فى تلطيف الجو نوعا ، واحاطة القيصرة الشابة



قصر شونبرون ، القصر الملكي الصيفي في فيينا حيث نزلت اليزابيت

بنوع من الاعجاب والحب والاغضاء ، بيد أنه ما كاد ولي العهد رودلف يبلغ السابعة من عمره ، حتى عاد الخلاف يضطرم بين القيصرة وخصومها حول تنشئة الأمير وتربيته ، وكانت اليزابيت تخشى عليه من أثر الميول الرجعية التي تسود البلاط ، ولكن القيصر تركها في النهاية ان تسهر بنفسها على تربية الأمير وتوجيهه ، فكان لها أعظم الاثر في تكوين نفس رودلف وعقليته ، فنشأ كأمه حر التفكير والنزعة في الحياة الخاصة والعامة يعشق الرياضات الشاقة ، ويرقب

من حياة القصر المصفدة العابسة ، الى حياة طليقة بهيجة ، ويهوى الآداب والفنون

وكانت القيصرة اليزابيت بالرغم من نشأتها الرياضية رقيقة البنية وكثيراً ما كان ينتابها المرض فكانت تقوم من وقت الى آخر بالاستجمام في بعض الاماكن المنعزلة التي حبتها الطبيعة بجمالها ، وكان أحب هذه الاماكن اليها جزيرة كورفو ، وقد ابتنت هنالك قصراً على الطراز اليوناني القديم ، وكانت تزوره من آن لآخر ، وتقضي هنالك اياماسعيدة

فى السكينة والعزلة ، بعيدة عن غمر السياسة وضجيج البلاط

وبدأت أحزان القيصرة الحقيقية بمأساة ابن عمها لودفيج الثانى ملك بافاريا . وكان لودفيج اميرا نابهـا بعضد الآداب والفنون ، وهو الذى أسبغ رعايته على فاجنر وفنـه ، وابتنى له مسرحـه الشـهير فى «بايرويت» بيد انه كان ذهنا شعريا هائما كثير التشاؤم . وكان مقررا أن يتزوج من اختها الاميرة صوفى ، ولكنه كان يشعر نحوها بحب عميق فكانت تستقبله بمزيج من العطف والروع ، وكان ولدها الارشيدوق رودلف ولى العهد يشغف بصداقته ويزوره فى ميونيخ من آن لآخر . ثم أصيب لودفيج فجاة بالجنون ، وحجر عليه ولم تمض أشهر قلائل حتى انتحر مع طبيبه غرقا فى بحيرة شتاربرجر فى سنة ١٨٨٦ ، فتأثرت اليزابيث وتأثر ولدها رودلف لمحنته اعظـم تأثير ، وتركت هذه المأساة فى نفسها أثرا لا يمحى

على أن القدر كان يخبىء لهـذه النفس المكلومة محنة أروع وأفدح ، ويسير بخطى سريعة نحو فجيعتهـا فى أعز عزيز لديها فى هذا العالم ، ونعنى ولدها الوحيد الارشـيدوق رودلف

وكان رودلف قد بلغ أشده ، وغدا شابا تعقـد عليـه آمال الامبراطورية ، ولكن هذا الامير الفتى كان كامه ذهنا حرا جريئا ، يعشق الرياضات الشاقة ، ويهوى الآداب والفنون ، ويطلق العنان لتفكيره وقلمه ، وكان يرغب عن حياة القصر ، ويحيا حياته الخاصـة ، ويغشى البيئات الشعبية ، ويطلق العنـان لاهوائه المضطرمة فى مجتمع الحسان الفينى ، ويقتطف من ازاهيره ما شاء ، وكان يذهب فى تلك الحياة الغرامية الصاخبة الى حدود مغرقة . وقد تعرف الامير خلال جولاته ومغامراته الغرامية بفتاة رائعة الحسـن من الارستقراطية الفينية هى البارونة مارى فتشرا ، وكانت مارى فتـاة رائعة الحسن ، فى السابعة عشرة من عمرها ، واثارت مارى فى نفس الامير جوى يضطرم ، بيد ان حبه لم يكن سوى نفثة جديدة من نفثاته الغرامية وكانت مارى من جانبها تشعر نحو الامير بحب مبرح ، وكثرت مقابلات العاشقين ، وذاع امرهما . وفى يوم ٢٦ يناير سنة ١٨٨٩ ، غادرت مارى فتشرا منزلها لآخر مرة ، وفى اليوم التاسع والعشرين من يناير ، وجد رودلف فون هبسـبورج ومارى فتشرا ميتين معا فى قصر الصـيد الملكى فى ضاحية مايرلينج على مقربة من فينا ، وكانت مأسـاة مروعة حمل نبؤها الى القيصرة والقيصر فى صباح اليوم التالى . وقد ألقى على هذه المأساة حجاب كثيف من الغموض ولم تعرف حتى اليوم تفاصيلهـا

الحقيقية . بيد ان البحث الحديث، والوثائق التي ظهرت بعد المأساة تسمح لنا بالقول بأن موت العاشقين قد وقع بطريق التفاهم بينهما ، وان ولي العهد رودلف قتل حبيبته البارونة ماري فتشرا ثم انتحر بعد ذلك ، وان انتحاره يرجع الى اسباب نفسية وسياسية معا

◘

وقد كان مصرع رودلف صدمة لامه القيصرة اليزابيت، لم تبرأ منها قط . ولم تستقر للقيصرة بعد فقد ولدها حياة ، ولم تهدأ لها نفس ؛ ولم يطب لها مقام في العاصمة النمسوية أو القصر الامبراطورى ، وأخذت تلتمس النسيان والسلوى في السياحة والسفر ، وكان القيصر يمنحها ما شاءت من الحريات . وكانت تقضي معظم أوقاتها بعيدة عن فيينا ، ولا سيما في قصرها اليوناني بجزيرة كورفو . وفي خريف سنة ١٨٩٨ ، نراها في سويسرا تحاول ترويح النفس ، وتتردد بين ضاحية مونترو حيث كان يطيب لها المقام ، وبين مدينة جنيف

وكانت القيصرة قد جاوزت يومئذ عامها الستين ، وهدمتها الاوصاب والاحزان ، وذهبت بروائها القديم الباهر . وكان القيصر يكاتبها اينما كانت ويوافيها تباعا بأنبائه وتحياته . وكان القدر يتربص بتلك النفس المعذبة المكلومة ، ففي يوم ١٠ سبتمبر سنة ١٨٩٨ ، غادرت الفندق الذى تنزل فيه في جنيف ، وهو فندق « بوريفاج » وسارت برفقة وصيفتها الى رصيف « مون بلان » ، لتركب المركب البخارى عائدة الى مونترو ، فما كادت تقترب من مرسى الباخرة حتى اقترب منها رجل ، وفاجأها بطعنة من خنجره ، أصابتها في الصدر على مقربة من القلب . وكان المعتدى ايطاليا من عصبة اللاحكوميين (الفوضويين) يدعى لويجي لوكى . وكان أولئك اللاحكوميون قد انبثوا يومئذ في انحاء أوربا ، يبحثون عن فرائسهم بين الشخصيات الملوكية المختلفة يجعلونها فداء لمذهبهم العنيف . وأتى لوكى الى جنيف ، والفى في القيصرة المسكينة فريسة سهلة المنال ، وكانت الطعنة قاتلة ، توفيت القيصرة منها بعد فترة قصيرة

وكان مصرع القيصرة اليزابيت على هذا النحو المؤسف حلقة جديدة في ثبت المحن التي توالت على آل هبسبورج ، وأصيب القيصر الشيخ ، الذى لم يكن قد برىء بعد من محنته بفقد ولده ، بصدمة جديدة اثارت كوامن شجنه وجراحه ، واستطال هذا الاستشهاد حقبة طويلة اخرى ، شهد القيصر خلالها ، الامبراطورية الهبسبورجية العتيدة ، تنحدر سراعا الى هاوية الانحلال والتفكك ، الى ان وافته المنية في اواخر سنة ١٩١٦ ، ابان اضطرام الحرب الكبرى

ست الملك

حسناء شغلتها السياسة عن الزواج

كانت مغامراتها سياسية أكثر منها غرامية . وأجرأ مغامرة لها ، انها قتلت أخاها الحاكم بأمر الله لتنقذ بلادها من شره ..



كان أخوها الحاكم بأمر الله الفاطمي يقول لها ، كلما سنحت الفرص : « انت يا أختاه ست الملك حقا . فاسمك على مسمى . وجمالك لا يضاهيه فى هذه الدولة جمال . وذكاؤك لا يعلو عليه ذكاء . ولهذا اريدك ان تبقى بجانبى ، وتواصلى امدادى بنصائحك وارشاداتك فى تدبير شئون الرعية وصيانة مصالح هذه الدولة التى خلفها لنا ابونا ! »

وكانت ست الملك تجيب : « لقد امتنعت عن الزواج فى بادىء الامر يا أخى لكى انصرف الى السهر عليك وانت فتى صغير ، او على الاصح طفل لم يبلغ بعد تمام مداركه ، وقد آل اليك الملك بعد وفاة ابينا العزيز بالله بن المعز لدين الله . ولما اشتد عودك ، وادركت فى ميلا الى الزواج ، ما نعت انت ، وقلت لى انك تريدنى لك وحدك ، اختا وفية محبوبة مكرمة ، ولا تطيق أن ترانى زوجة لرجل كائنا من كان ، يصرفنى عنك ، ويلهينى عن الاهتمام بشؤون المملكة ! »

كان الحاكم بأمر الله يخدع اخته ويضللها بأقواله ، وكانت ست الملك تخدع اخاها وتضلله بأقوالها . فقد تسربت الكراهية الى قلب كل منهما تجاه الآخر ، وحلت فيه محل المحبة

الحاكم بأمر الله كما تخيله الرسام

المتبادلة ، والثقة التى لم تكن تعرف حدا

□

كانت ست الملك جميلة حقا ، كما وصفها الحاكم . ولو اقيمت فى ذلك الوقت مباراة فى الجمال كتلك المباريات التى تقام فى ايامنا هذه ، لما تفوقت فى هذا المضمار امراة من حسان مصر على ست الملك الفاطمية !

طلعة بهية . وعينان واسعتان . ونظرات ساحرة . وصوت عذب . وذكاء مفرط . وهمة عالية . وبشرة نضرة . ومشية كمشية الغزال . وعنق كعنقه ايضا . وقلب مفعم بالمشاعر والعواطف . لو وقفته ست

الملك للحب فقط ، ونزعت منه ما عداه ، لكانت تلك المرأة الرائعة سيدة العاشقات لا تنازعها في هذا الميدان حسناء !

كانت قد جاوزت العشرين من العمر عندما مات ابوها العزيز في سنة ٣٨٦ الهجرية ، الموافقة لسنة ٩٩٦ الميلادية ، وآل الملك الى أخيها الصغير الحاكم ، وكان في الثانية عشرة من العمر فقط . ولو لم تقف ست الملك بجانب الصبي الذي أصبح ملكا ، لما بقي العرش في حوزة سلالة المعز . فقد قبضت ست الملك على زمام الامور بيد اقوى من يد الرجال ، وبهمة لم تعرف الكلل في ساعات الهدوء وساعات الاضطراب على السواء

كان هناك أوصياء على العرش تاكل المطامع صدورهم . ولكن ست الملك عرفت كيف تحد من تلك المطامع ثم تقضي عليها وعلى الاوصياء

وكبر الصبي . وما لبث ان ظهر في مظهر لم تكن أخته تتوقعه فيه . تحول من مخلوق طيع لين الجانب رقيق الشعور ، الى طاغية قاسي الفؤاد شرس الطبع متعطش الى الدماء ... وذلك في اقل من أربعة أعوام بعد ارتقائه العرش

طغى الحاكم بأمر الله وتجبر ، وتمادى في سبل الظلم والغدر والبغي . وتحولت ثقته بأخته الى شك ، ومحبته الى بغض . وهذا ايضا ما حدث في نفس ست الملك تجاه الاخ الضال الشارد عن طريق الصواب

حاولت وقفه في أول ذلك الطريق ، ثم في منتصفه ، ففشلت . وعمدت الى كل الوسائل ، اللينة منها والقاسية ، الهادئة والعنيفة ، الى النصح ، الى التهديد . ولم تكن النتيجة في كل مرة غير الفشل الذريع ، واسترسال الحاكم في الضلال القرارات والاوامر والقوانين والاحكام التي اصدرها في خلال ربع قرن من الزمن ، تعد أعجب مجموعة من نوعها : حرم على النساء الخروج من بيوتهن ، وحرم على الناس أكل بعض الانواع من الطعام ، وأمر بقتل الابرياء واغلاق الحمامات العامة ، وفرض الضرائب الباهظة ، واحرق عاصمة ملكه واطلق فيها جنوده الاغراب ينهبون ويسلبون ويسبون

> ... لو لم تشغلها شؤون المملكة عن الحب لكانت ست الملك في راس قائمة عاشقات التاريخ ، ولصرعت بجمالها جموعا

□

وقد اراد ان يتخلص من اخته كيلا تواصل ازعاجه بتدخلها المستمر

فى سلوكه . ولكنه خاف مغبة الامر ، وكانت هى شديدة اليقظة ، دائمة السهر على سلامة نفسها ، فأفسدت على الاخ الطاغية خططه وتدابيره

وتطلعت اليهـــا الانظار : أنظار المعجبين بجمالها ، فتقربوا منهـــا ، وخطبوا ودها ، وفاتحوها فى شـأن الزواج ، فرحبت باعجابهم ولكنهـا رفضت عروضهم

لم تتزوج فى باديء الامر لتضمن الملك لاخيها . ثم لم تتزوج بعد ان ضمنت للاخ ملكه لانه حرم عليهـا الزواج . ثم لم تتزوج لما تحررت من طغيانه لانهـا صممت على ان تنقذ الملك من الطاغية ...

وتتطلعت اليهـا ، مع أنظار المعجبين ، أنظار الخائفين القلقين على مصيرهم . فرحبت بهم ايضا . ولم تتردد فى الاندفاع فى أكثر من مغامرة لانقاذ بريء من الموت ، وتخليص ضحية من براثن الحاكم

أراد الحاكم بأمر الله ان يقتل المغنيـة « تغريد » ، وأن يبطش بحبيبهـا « تميم » وهو من أفراد أسرته ، فحـالت ست الملك دون اقتراف الجريمة ، وساعدت الشابين المتحابين على ان يعقدا زواجهما ، ويهربا من القاهرة الى الاسكندرية ، ومنها الى خارج مصر !

وأراد الحاكم ان يحرم ابنه عليا من وراثة العرش من بعده ، ووقع اختياره على ابن عم له ليـكون خليفته . فتآمرت ست الحسن على أخيهـا وعرفت كيف تحفظ وراثة العرش فى سلالة المعز المباشرة

عشرات من الامراء ، والقـواد ، ورجال العلم والفضل ، رفعت يد الحاكم لتنقض عليهم ، فاذا بيد ست الملك تمنعها من الفتك بمن لايستحق الهلاك ، وتنتزع الضحية من أنياب الموت

أصبح بقاء الحاكم بأمرالله جالسا على عرش مصر فى وقت من الاوقات خطرا على البلاد وعلى العباد . وبلغ تذمر الشعب اقصـاه . وادركت ست الملك ان واجبهـا يدعوها الى انقاذ الدولة من الرجل الذى يسير بها الى هوة سحيقة لا يعرف لهـا قرار

ونبتت فى راس الاخت فـكرة اغتيـال الاخ ! وبحثت عن شريك تأتمنه على سرها وتعهد اليه بتنفيذ قرارها ، واختارت ، من بين عظمـاء المملكة الرجل الذى خفق له قلبها فى ساعة من تلك الساعات القليلة ، التى كانت فيها ست الملك تفكر فى نفسها ، وفى التمتع بمباهج الحيـاة كامرأة لها قلب يتطلب الحب مثـل غيره من قلوب النسـاء

ذلك الرجل الذى وقع عليـه اختيـار ست الملك هو الحسين الدواس المغربى ، القائد الشجاع ، الناقم على الحاكم بأمر الله بسبب

ظلمه وبغيه ، والمعتزل فى قصره بعيدا عن الناس

ارسلت فى طلبه ، فلبى النداء فى الحال

وتم الاتفاق بينه وبينها ...

خرج الحاكم بأمر الله ذات مساء الى جبل المقطم ، راكبا حماره ، ومعه اثنان من غلمانه ، ليرصد النجوم كعادته . فتصدى له ابن الدواس ورجاله ، وقتلوه ، واخفوا جثته ...

ولم تضيع ست الملك وقتها . فقد نادت بابن الحاكم خليفة لابيه ، وجلس الشاب على العرش باسم « أبو الحسن الظاهر » وهو الرابع من ملوك مصر الفاطميين ، وكان ذلك فى سنة ٤١١ الهجرية ، الموافقة لسنة ١٠٢٠ الميلادية

وتولت ست الملك ارشاد ابن اخيها ، كما تولته من قبل ارشاد ابيه !

ولكن حكمتها ، وبعد نظرها ، وما امتازت به من حذر ، كل ذلك جعلها تفكر قبل كل شىء فى التخلص من الذى قتلوا الحاكم باشارة منها !

فلوفدت من يقتل ابن الدواس والذين اشتركوا فى اغتيال الحاكم

وصفا الجو للملك الظاهر ، او على الاصح لست الملك لكى تعيد الامور الى نصابها ، وتلغى القوانين والاحكام الغريبة التى فرضها اخوها على البلاد ، وتعيد الناقمين الى حظيرة الطاعة ...

وعاشت ثلاثة اعوام بعد مصرع الحاكم ، تمكنت فى خلالها من توطيد العرش لابن الحاكم ...

وماتت معززة مكرمة ...
وبدون أن تتزوج !

راجت عنها فى حياتها ، وبعد موتها ، اشاعات لم تثبت منها واحدة بدليل قاطع . ويغلب على الظن ان الرجل الوحيد الذى احبته هو الحسين بن الدواس . ولكنه كان حبا عابرا ، او مجرد نزوة لم تدم طويلا ...

ولابد أن تكون ست الملك قد عرفت فى حياتها اكثر من رجل واحد . ولكنها ــ وهذا ما يستدل من وقائع التاريخ المعروفة لنا ــ لم تسلم قيادها لاى رجل ، لا من اسرتها المالكة ، ولا من كبار رجال المملكة الذين طالما حاموا حولها ، وخفقت قلوبهم بحبها

انها من الحسان اللواتى درج المؤرخون على وصفهن بانهن من « الفاتنات العذارى ! »

ولو لم تشغلها شؤون المملكة عن الحب ، لكانت ست الملك فى راس قائمة فاتنات التاريخ ، ولصرعت بجمالها جموعا من العاشقين !

كليوبترا

فاتنة غيرت وجه التاريخ

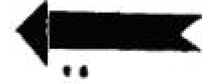
بقلم الأستاذ زكى طليمات



تنفرد كليوبترا بين بطلات التاريخ ، بأن بطولتها مستمدة من طبيعة جنسها ، بل من اخلص غرائز المرأة ، وهى الانوثة ... كانت أنثى ذات دلال وخطر ، فقد جمعت الى لين المرأة وسعة حيلتها ، طموح الرجل وجرأته . انهـا الأنثى العبقرية !

الاسم كليوبترا ، والقابها : ملكة مصر ، فاتنة الدنيـا ، رقطاء النيل ، ذات الانف الذى لو قصر طولا لتغير وجه العـالم ، الى غير ذلك !

وقد حمل الاسم قبلها ست اميرات من اسرتها ، اسرة البطالسة



التى حكمت مصر منذ أن دخلها الاسكندر المقدونى عام « ٣٢٣ ق . م الى ٣٠ ق . م » ولكن واحدة من الاميرات الست لم تحفر حرفا واحدا فى تاريخ مصر ، فى حين أن السابعة والاخيرة ممن حملن هذا الاسم ، والتى توجت ملكة على مصر، وبنهايتها انقضى حكم هذه الاسرة ، هذه ، كتبت فى تاريخ مصر ، وفى تاريخ روما ملحمة وأسطورة

وكليوبترا ، اسم مؤلف من مقطعين فى اللغة اليونانية ، الاول (كليو) ومعناه فخر، والآخر (بترا) ومعناه وطن ، فالاسم معربا هو (فخر الوطن)

واللقب الاول (ملكة مصر) تؤكده الوثائق الرسمية الخاصة بالاسرة ، فهى ابنة بطليموس الحادى عشر ، الملقب (بالزمار)

و (فاتنة الدنيا) لقب جرى ويجرى به لسان كل من تروعه سيرة هذه الملكة ، ممن يعلون الفتنة النسوية والذكاء الحاد على جميع مؤهلات المرأة

و (رقطاء النيل) بدوره لقب أطلقه عليها الرومان ، أعداؤها لأنها « تحوت » على زعيمين من زعمائهم ، ونفثت فيهما سموم سحرها ، فأحالتهما خاتمين تديرهما فى أصابعها كيفما تشاء !

أما (الانفوطوله) فقد جرى به لسان الفيلسوف (باسكال) فى القرن السابع عشر ، حينما أحفظه انه لم يجد فى سمات وجهها الوسيم ما يؤاخذ عليه الا طول فى الانف ، وفى هذه القولة ، الشهادة بأن وسامة كليوبترا ، لم تكن فى حاجة لتوقيها من العين غير طول فى الانف

وهكذا فان الاسم وما يتبعه من ألقاب وصفات ، جعل من هذه الملكة المصرية نغما يترنم به التاريخ، وتحيله أقلام الكتاب قصصا ، ومسرحيات، وقصائد وأساطير ، تتعاطاها الشعوب على الزمن ، ولا تمل

يوليوس قيصر

الملكة الانثى

وقد نتساءل ما السر فى أنه يحلو لنا أن نطالع سيرة هذه المرأة أكثر من سير غيرها من أعلام التاريخ من النساء ؟

أعتقد أن السر قائم فى أن كليوبترا

دخلت كليوباترا على قيصر فى القصر الامبراطورى بحيلة بارعة ، ويرى العبد العملاق الذى حملها داخل البساط الملفوف على انه هدية من أخيها



تنفرد بينهن بميزة واحدة ، وهى أن بطولتها مستمدة من طبيعة جنسها، بل من أخلص غرائز المرأة ، وهى الانوثة

لم تكن كليوبترا قديسة (كجان دارك) ، ولا محاربة مصاولة مثل (زينوبيا) ملكة تدمر ، ولا سياسية مدبرة (كشجرة الدر) فحسب،ولا شاعرة (كسافو) ، ولا مخترعة (كمدام كورى) ، قد يكون فى كليوبترا اقباس من هذا ، ولكن زادت عليه ، ما هو أعلى مرتبة فى تقدير المرأة ، زادت‌عليه أنوثة عارمة طاغية ، والانثى بنوازعها وحيويتها ومغامراتها أبلغ تأثيرا فى الرجل وفى المرأة من أى عامل آخر ، فالرجل مشدود دائما الى تعرف وجوه من المرأة ، ولأن المرأة بدورها ، تشغل دائما بالنابهة أنوثة وحيلة من بنات جنسها

وماذا ياترى فى كليوبترا من خصائص الانوثة ؟ الدفء النسوى ؟ الجاذبية الجنسية ؟ الوسامة المعبرة؟ الحذق فى امتاع الرجل ؟

قد يكون هذا كله فى كليوبترا، وبفيوض كبيرة ، ولكن لو إقتصر الامر عليه لما جعل منها أكثر من غانية ، وسادها ملتهب أحمر،ولياليها أشواق وعناق ، ولما استطاعت أن تلعب الدور الكبير فى تاريخ مصر وروما

الانثى العبقرية

لا شك‌فى أن‌وراء هذا كله‌مواهب أخرى : حدة فى الذكاء ، وسعة فى الحيلة ، واصابة فى الحس ، وعناد فى الارادة ، وجرأة واقدام ، كانت تدفع هذه الانوثة وتوجهها ، شأن الريح التى تملأ الشراع فتسير السفينة ، لأن‌الشراع وحده ، مهما كبر ، لا يحرك السفينة ما لم تدفعه الريح

بهذه المواهب‌كلها نازلت‌كليوبترا الاحداث والرجال ... تصطنعهم ، وتحسن الاحتفاظ بهم‌وتعتصرأحسن ما فيهم ، وتديرهم حيثما تشاء

والانثى اذا جمعت هذه الصفات، وكانت بحكم محيطها تهدف لتحقيق أغراض جسام ، أصبحت جسدا ورأسا ، غريزة عنيفة وذهنا وقادا ، قوة جبارة ، لا تبالى بالوسيلة فى سبيل الغاية ... وهذا شأن كليوبترا ، وتشهد سيرتها بأنها ما كانت غير هذا !

الخيط الاول

تفتح مفهومها على ما يحوطها أول ما تفتح ، على أنها سليلة أسرة يونانية مترفة تحكم مصر منذ ٢٥٠ عاما ، ولكن افرادها لا يحكمون جماح نفوسهم أمام شهوات الحكم والسلطان ، فكل‌منهم يثب‌على‌الآخر، الا فيما ندر ، بالسم والخنجر ، أو الكيد والدسيسة ، أو كلها معا

كانت فى‌الحادية عشرة‌حينما وعت الدنيا بنضجها المبكر ، والدنيا‌كانت لديها والدها واخوتها وبيئتها، ثم مصر والدها بطليموس الحادى عشر ، لقبه الشعب (بالزمار) لتهالكه على‌المجون والسفه ، يخالط الرقيق ويعزف لهم على مزماره

ويرقص معهم ، فكان أن رقص التاج على رأســه ثم هوى ، ليستقر على جبين أخت لها تكبرها فى السن ،

وفر الوالد الزمار الى روما يحتمى بها وترك وراءه ذرية من بنين وبنات دون سنها ، وتشملهم جميعا بيئة عطنة يمزقها الانقسام فى الرأى والوهن فى النفاذ . ومصر مشدودة الى ركاب روما التى أصبحت سيدة العالم . فعلى حكامها أن يحالفوها وأن يقدموا لها خيرات مصر بلا ثمن الا أن يبقوا على العرش ، التاج عندهم لا يعدله شيء : لا العقل ولا الكرامة

وعت كليوبترا كل هــذا ، وما زالت ضامرة الجسم ناهدة الثديين، وان نضجت فيها أنوثة قبل الاوان، وبرزت لها وسـامة أخاذة ، كانت تحسهما لحديث الناس عنهما ، الأن النضج الانثوى فيها ، صاحبه نضج ذهنى ، فهى على فطنة وطموح ، تلمح بعين فاحصة ما يجرى فى روما ويمتد أثره الى مصر ، وتراجع بعين أخرى أحداث محيطها ، ثم هى تقف أمام خريطة العالم وتجرى أصـابعها الى ما يجب أن تمتد اليه حدود مصر

لقد أحست التبعات الملقاة عليهـا لترد الى مصر بعض كرامتها ، ومن هذا الاحساس انبثقت الحوافز الباطنة والظاهرة التى كانت تدفعها

الخطى الاولى

بالفتنة فى جسدها ، وبالفطنـة فى عينيها ، وبالحلم البعيد فى خيالها دخلت معركة الحياة بخطى غير مرتعشة ... هوى التـاج عن رأس أختهـا فاستقر على مفرق جبينهـا وهى لم تتجاوز السابعــة عشرة واسـتقر بوصاية روما ، وعلى أن تتزوج من أخيها الذى يصغرها بسنوات ... أبرمت بهذا الزواج وثيقة ، ولكنها لم تنفذ ، فعلا ، لا لسبب الا أنهـا تضن بجســدها عـلى عبث مراهق هزيل !

وقامت منافسة على تصريف شئون الحكم بينها وبين الاخ والزوج المحروم من متع الزوجيـة ، وساندته بطانة من الوصوليين ، وشد أزره حـزب قوى من الطامعين، فسرعان ما انقلبت الحال الى نضال مسلح ، وألقت عصابة أخيها فى روع الشعب أن كليوبترا شـابة نزقة تمنـح وفود (روما) ما تضن به على (زوجها) . وهكذا عرفت كليوبترا ، أول ما عرفت ، تشـويه السمعـة زوراً ومن أبنـاء وطنها ، اذ لو صح هذا لاستنجدت بوفود روما !

لم تستنجد كليوبترا بروما ، ولم تتملقها لتنتصر على أخيهـا ، وانما هربت الى شواطىء البحر الاحمر مع حفنة من جنودها المخلصين ، تترقب الفرص بعــد أن آثرت ألا يتدخل الاجنبى فى شئون مصرية داخلية . وبهذا سـجلت انتصاراً للكرامة على المصلحة

النجم الصاعد

وبينمـــا كانت كليوبترا تقـود بنفسها جيشها لتلتقى بجيش أخيها قرب دميـاط من أجـل أن ينفرد أحدهما بالتاج ، كان العالم مشغولا بالحرب القائمة بين أكبر قائدين من زعمـاء روما (يوليـوس قيصر)

و (بومبى) ، وقد انتهت بهزيمة الاخير وهروبه من اليونان ملتجئا الى مصر

ولكن أخ كليوبترا لم يتردد فى اغتيال الضيف اللاجىء من أجل أن يضمن مناصرة (قيصر) الذىصارت له الكلمة العليا فى روما ... وروما هى المسيطرة على أقدار وادى النيل

وسرعان ما نزل قيصر مدينة الاسكندرية ، وتحدث القائد المنتصر بلسان السياسى الداهية ، فأعلن انه انما نزل مصر صديقا لينهى النزاع القائم فيها على الحكم ، وليعيد النظام الى نصابه ، وسرعان ما أقبل عليه أخوها ،خاضعامعلنا الولاء والاعجاب!

وانتهى هذا الى كليوبترا ، وهى قرب دمياط ، فعرفت أن (قيصر) يريد أن يقدم مصر هدية الى روما مع أمجاد انتصاراته . وأدركت بفطانتها العريقة بألا سبيل الى أن تنفرد بالتاج ، والى أن تبقى على مصر استقلالها الداخلى ، الا اذا تفاهمت مع القائد الداهية ووقف الى جانبها

ولكن كيف الوصول اليه ، وأى صنف من أصناف الرجال هو ؟

انثى تتحفز !!

لقد أقام أخوها بينها وبين قصرها بالاسكندرية سدودا وفخوخا من عيونه وأعوانه لاغتيالها ، وما جمعته من معلومات عن قيصر ، متناقض ، انه شيخ فى الخمسين من عمره ، ولكنه شديد الغضب ، زير نساء ، ثم هو يقتنى الغلمان ! تزوج للمرة الرابعة ولم ينجب ذرية ، ابن حروب وربيع معارك ، ثم هو فى الوقت نفسه مغرق فى الاناقة وفى الرفاهية!

وهاهو يوفد الرسل اليها يستدعيها للحضور ويلح فى الدعوة، ولم هذا الالحاح وبين يديه كنوزها فى القصر الذى ينزل فيه ، وليس بين يديها الآن مال ولا جوهر !

أدركت كليوبترا بفطانة الأنثى ما يعتمل فى نفس قيصر ولا يعرف كيف يفصح عنه ؟

لقاء مسرحى !!

كان قيصر مضطجعا على سريرفى القصر ، فى جسمه فتور وفى عينيه سام عميق . ودخل أحد الضباط يتقدم عبدا عملاقا يحمل على كتفه بساطا ملفوفا . انه هدية من أخى كليوبترا ، بطليموس ، الى قيصر

واخذ العبد ينشرالبساط ، وقبل أن يأتى على آخره خرجت منه كليوبترا !

شىء طريف مفاجىء انبهرت أمامه عينا القائد المحنك

وببساطة الطبع الخصب .. وبخفة ظله أخذت كليوبترا تحكى ... انها لم تجد وسيلة لاجابة دعوته الا أن تختبىء فى قارب بين البسط والسجاجيد ، دار بها حول الدلتا وتسلل بين قطع أسطول أخيها الذى أرصده للقبض عليها !

ومد قيصر يديه نحو كليوبترا طربا مبهورا ... أية مادة طريفة ساقها القدر اليه ليدفع عنه سأم النفس وركود الحس !

البساطة الغنية فى الصوت وفى



كليوباترا مستلقية على الأريكة ، وحولها وصيفاتها يرقصن ويعزفن

الايماءة ، وخفة الظل ، والاقدام ، وسعة الحيلة ، كل هذا يجتمع في جسد غض يفيض بالسحر وينبض بالفتنة ويزينه الوقار اذ هي ملكة سليلة ملوك !

ورسم القدر نقطة البداية لعلاقة قوية بين الكهل والشابة

امرأة ورجل

أحبت كليوبترا العبقرى قيصر بعقلها ، وانه لجدير بهذا الاعجاب.. وأحب قيصر صاحبته بقلبه ، وانها لحرية بهذا الحب

من السهل أن توقع امرأة رجلا في شباك فتنتها ، ولكن ليس من السهل أن تحتفظ به ، وتفيد منه كل الفائدة. لتحقيق هذا لابد أن يقوم وراء الفتنة ذكاء لماح تحسن معه المرأة فهم الرجل ، حتى فيما لا يصل اليه فهمه من نفسه ، وأن تكون على ابتداع وابتكار في دفع السأم عنه وتملق رغباته

رجعت كليوباترا الى قصرها في بساط ، ثم ما لبثت أن دخلت

قلب قيصر في غلائل من حرير وهي تتفنن في أن تقدم له ألوان الترف والرفاهية التي ألفها وتزيد، وأن تتملق نوازع الشيخوخة المتصابية فيه، وأن تشعره بأنه الأمر المسيطر عليها، بل كانت الى جانبه في المعارك لاخماد الثورة المسلحة التي يقودها أخوها بطليموس ضدها وضد قيصر، وكانت تشاركه مضجعه الخشن في الخيمة، ولكنها في الليل تنقلب الى غانية هلوك ٠٠ حيوات عدة تجتمع في امرأة واحدة!

لم يسع قيصر الا أن يتزوجها، والا أن يعقد تاج مصر على رأسها بعد أن سقط أخوها في احدى المعارك ٠ وهكذا استطاعت كليوباترا أن تغير وجه التاريخ في احدى مراحله ٠٠٠ عاد قيصر الى روما، بعد أن أعطته ولدا من أحشائها يحمل اسمه، عاد وأقنع شيوخ روما بأن مصر، وملكتها، انما هي الحليفة التي يجب أن يكون لها القوة والسلطان!

وهنا يبرز سؤال يرفع الصوت:

ـ هل الانوثة في كليوباترا هي التي تستبد بها وتقودها؟ أو أن كليوباترا تتخذ من أنوثتها، وهي المرأة الدافئة، وسيلة الى تحقيق ما يرسمه ذهنها؟

لعل الجواب الشافي لهذا تفسره الاحداث الآتية:

السيد الجديد

وأول هذه الأحداث، اغتيال قيصر في روما ٠ لقد بلغ النجم الصاعد تمامه، ثم القصاص من قتلته، ثم تقسيم الامبراطورية بين من تولوا هذا القصاص، وهما أوكتافيو وانطونيو، للاول المغرب، وللآخر المشرق، ومصر وكليوباترا في هذا المشرق

وأمام مجلس شيوخ روما أكد أنطونيو أبوة قيصر لابنه من كليوباترا فوافق المجلس، كما أقامه وصيا على الطفل، وهكذا ارتبط مصير كليوباترا بمصير السيد الجديد.

وأي سيد هو؟

قائد روماني عارم القوة شديد المراس، ولكنه يتعاطى النساء والخمر في اسراف وكأنه غير متزوج ٠٠٠ وفوق هذا فهو يترسم خطى أستاذه (قيصر) في كل شيء، وقيصر تزوج من كليوباترا، فاتنة الدنيا وله منها ولد قد يحكم روما ومصر في وقت واحد ٠ وقيصر كان يحلم بغزو فارس، متخذا من مصر قاعدة لزحفه!

وأرسل السيد الجديد الرسل الى كليوباترا يطلب لقاءها ٠٠٠ وتمنعت غير مرة، وأخيرا تم الاتفاق على أن تلقاه خلال نزهة بحرية أمام شواطىء الشام ٠٠٠ ان مسالمة روما تقضي بهذا، وانطونيو هو ند أوكتافيو الذي نصب نفسه ابنا لقيصر بالتبني!

وعلى سفينة أرجوانية الشراع تسبح في بحر من ترف أرض الفراعنة تم اللقاء ٠٠٠ بعد أن تفننت كليوباترا في (اخراجه) كما يدق المخرج المسرحي في ابراز مشاهد المسرحية ٠٠٠ هي مسترخية فوق

سرير من الذهب ، تحوطها الجوارى يحرقن البخور ، وهو يتقدم نحوها فوق منثور الزهر ، هذا والنـاى يعـزف الايقـاع الذى تضرب به مجاذيف السفينة وجه الماء

واتحنى انطونيو بجرمه الـكبير يأخذ يد الملكة التى لم تقف له ، ثم انحنى ، فاذا هو يجثو ٠٠٠ولم يقم ! وسار معها الى الاسـكندرية تاركا روما وراءه

وأعاد التاريخ نفسه ٠٠٠

سيد روما فى قبضتها تديره على الوجه الذى يحفظ لمصرسلامتها٠٠٠ هى تعجب به فى أول الامر ، فاذا الاعجاب طريق الى الحب ٠٠٠ واذا الحب يقيم أعراس الزواج٠٠٠والمرأة المجربة تدرى بفطرتهـا أن الزواج ملجأ الحب،ولكن فى الزواج استقرارا وفوائد !

هذه المرأة !

ان فى كليوباترا خاصية عجيبـة

ان التوهم عنـدها سرعان ما ينقلب الى حقيـقة ٠ انها تمعن فى تقمص الشخصية التى تدفعها الظروف الى أن تعيش فى لبوسها ، هى تمعن فى هـذا الى حد انها تفنى فيها،بعد أن تتكيف،طبق مستلزماتها، وكليوباترا فى تقمصـها هـذه الشخصية ، انما تهـدف ، أول ما تهدف ، الى أن تسيطر على الرجـل الذى تريده من أجل حفظ تاجهـا ، وهذه السيطرة لا تتم الا بتـدخل الغريزة الجنسية ، بحيث تصـبح الوساطة والوسيلة ، ولـكن اذا تم لهذه المرأة أمر السـيطرة ، تحولت الوسيلة الى غاية فى ذاتها !

والغريزة الجنسية اذا سـيطرت على الرجـل بتأثير من امرأة تكافح بها ، انصرف الرجـل عن كل شىء سواها ٠ انصرف انطونيو عن تحقيق حلمه فى غزو فارس بعد اتخاذ مصر نقطة ارتكاز له وجعلها ولاية رومانية ٠٠٠ وبقيت مصر دولة مستقلة !

الفاتنـة كليوباترا تغير وجـه التـاريخ مرة ثانية ، فيما كان مرسوما له !

ليس للسياسة قلب

وللمرة الاخيرة تقف كليوباترا ، وقد انحدرت بها السن،أمام أحداث ذات خطر ٠٠٠

أوكتافيو يسوق روما لمحـاربة انطونيو ، بعـد أن تعقدت الامور ، وساءت العلاقات بين القرنين،لاسيما وقد تجسم خطر جديد يهدد أوكتافيو فى شـخص ابن قيصر الشرعى من كليوباترا

وفى معركة (أكتيوم)، بجنوب اليـونان عام ٣١ ق٠م٠ كانت كليوباترا على رأس اسـطول مصر تناصر زوجها ، وهى موقنة أن فى هزيمته ضياعا لتاجها ٠ ولكن الذى وقع أن كليوباترا ، حينما أحست أن الدائرة تدور على زوجها ،انسلت بأسطولها راجعة الى الاسـكندرية تاركة زوجها للهزيمة

ان الآراء تتضارب فى تفسير هذا الموقف :

فمن زاعم بأنها فعلت هذا لانهـا أحست بأن نجم انطونيو قد أفل

هي لا تحب الآفلين !

ومن قائل بانها توخت أن تنال الحظوة لدى المنتصر ، أوكتـــافيو ، السيد الجديد !

ومن مرجف بانها آثرت الايتحطم أسطول مصر ، وأنتنقذ به ما يمكن انقاذه من عدتها !

ومن مؤكد انها بادرت بالرجوع الى عاصمة ملكها لتتدارك أسـباب الموقف الجديد !

ان الموقف يحتمل بعضا من هذه التأويلات ، أوكلها معا ، ولكن الذى لا يحتمل تأويلا هو ان الحب فيقلب كليوباترا لم يتدخل فيهذا الموقف، وبمعنى آخر ان الحب لدى كليوباترا لا يتعارض مع مصلحتها ، التى هى مصلحة مصر

ظلام النفس

وها هى ذىكليوباترا فى قصرها تفكر وترسم ، وتراجع وسائلها فى أن تسيطر من جديد على سيد روما، وعبر بخاطرها ما فعلته مع قيصر ثم مع انطونيو

ولعلها أخذت تدبر أمر (اخراج) مشهد مروع جديد ، ومد ذهنها فى أسباب حبكته ، ولعلها نسيت انها لم تعد الفتاة الناهدة الثديين الرشيقة الحركة ، وأنها تجاوزت مرحـــلة ازدهار النضج الانثوى

أيا كان التدبير الذى أخذت به ، فان أوكتـــافيو لم يترك لها طويل وقت ، فها هوذا يدخل مصربجيوشه من سيناء ، وقد أجمعت الاخبـــار الوافدة من معسكره بأنه قطع وعدا بأن يسير بملكة مصر أسيرة الى روما فى قيود من ذهب

ملكة مصر ، سـليلة الفراعنة ، زوجة يوليوس قيصر وأم ولده ، ثم زوج انطونيو...كبرياؤها ،كبرياء الانثى التى عرفتالسيطرة علىأبطال الرجال ، شعورها بانطفاء الفتنـة فيها – ويا له من لاعج مرير – والى جانب هذا ، وهوالاهم ، يقينها بأنه لم تعد هناك وسيلة تحفظ عليهـــا تاجها ، وتصون وطنها

كل هذه العوامل مجتمعة ،أنهت عزمها على شىء ...

فوق سرير من ذهب يحوطهجلال الملك وترفالفراعنة ، بين أنينالناى وتعانق الدخان الصاعد من المباخر، أسلمت كليوباترا جيدها الى أفعى سـامة ، اختارتها من بين أفاعى ، يكون الموت من نابهـا وكأنه نعاس رقيق يزيد من رواء الحسن وتوهج الفتنة !

كانالرومان ، أعداؤها ، يؤمنون بأن فى الانتحار بطولة دونها بطولة، اذا جاء مخلصا من ذل وهوان

انتحرت كليوباترا ، اعلاء لعرش مصر ، وقبـلا عاشت لعرش مصر ، وبذلت فى سـبيله عرش جمالهـــا وفتنتها .وبانتحارها ، غيرت ، لآخر مرة ، وجه التاريخ فيما قدره لهـا أعداؤها ، فلم تدخل روما فيركاب الأسر والذل ، وبقيت بحياتها ، ثم بمماتها ، أسطورة ينشدها التاريخ، عنوانها الفاتنة التى غــيرت وجـه التاريخ

ارادها فى حياتها أن تكون ملكة فمنعه ابوه ، فلما ارتقى العرش اخرج جثتها من القبر وتوجها ملكة

الجثة المتوجة

حسناء تولى العرش بعد الموت

إن الغرام الذى نروى لك هنا مأساته ، اعجب غرام عرفه التاريخ بلا شك

اسم العاشق « دون بدرو »

واسم العشيقة « اينس دى كاسترو »

ومسرح غرامهما بلاد البرتغال

ولدت اينس دى كاسترو سنة ١٣١٠ وماتت سنة ١٣٥٥ ، فى الخامسة والاربعين

كتب عنها شعراء ، ومؤرخون ، ومؤلفو مسرحيات ، وخلد صورتها رسامون ونحاتون ، وحياتها مدونة فى لغات عديدة الاسبانية والبرتغالية والايطالية والفرنسية

□

كانت على جانب عظيم من الحسن والدلال ، شعرها ذهبى . وعنقها طويل كعنق الغزال . هذا ماوصفها به الكتاب الاسبانيون الذين عرفوا « عنق الغزال » من الشعراء العرب

كانت لها ابنة عم تدعى «كونستان» تزوجت من الامير « دون بدرو » ابن الفونسو الرابع ملك البرتغال ، وولى عهده

دعتها ابنة عمها لزيارتها ، فذهبت الى لشبونه عاصمة المملكة ، ونزلت فى القصر الملكى ضيفة على زوج كونستان

ووقع الامير فى حبها ، واهمل زوجته

وفى مدينة « كويمبرا » الشهيرة بجامعتها العالمية ، توجد الى الآن عين ماء تدعى « عين الغرام » يقال انهما كانا يلتقيان عندها ، وان مياهها المفردة كانت واسطة التخاطب بين الحبيبين !

كان الامير يلقى رسالته الغرامية فى الماء ، فينقلها التيار الى الحبيبة ، وكانت اينس ترد على رسائل الحبيب بالطريقة نفسها . وهذا اغرب « بريد » عرفه العشاق فى كل زمان ومكان

وماتت الزوجة فى سنة ١٣٤٥ ، واينس فى الخامسة والثلاثين من العمر ، وأراد دون بدرو ان يتزوجها ، فعارض أبوه الملك بحجة انه لايليق بالامير ان يتزوج عشيقته ، لكن الامير تحايل على التقاليد ، فتزوج الحبيبة سرا ، ووجد بين رجال الدين من يعقد الزواج حسب قوانين الكنيسة ، ويبارك الحب الذى أصبح

شرعيا وعلم الملك بما حدث ، فقرر أن يتخلص من المراة بأية وسيلة من الوسائل وحرضه خصوم ابنه ، بل خصوم أسرته على الاصح، على المضى فى تنفيذ انتقامه ، وادخلوا فى روعه أن اينس ، العشيقة التى أصبحت زوجة سرية ، عازمة على قتل الملك لكى يعتلى العرش حبيبها، وتصبح هى ملكة على البرتغال

واقتنع الملك !

▭

وذات يوم ، ذهب اليها ومعه اثنان من الأشراف الذين حرضوه عليها ، وطرق بابها ففتحت له ، وكان معها ولداها الصغيران ، من زوجها بدرو

نظر الملك الى حفيديه ، فرق قلبه

طلب منها أن تبتعد عن ابنه . وقال لها انه كان عازما على قتلها ليغسل بدمها العار الذى الحقته بأسرته ، ولكن مرأى الطفلين جعله يعدل عن عزمه ، على شرط أن تبتعد وتختفى من طريق ابنه

وعدته المسكينة بأن تفكر فى الامر ولكن ، كيف السبيل الى اقناع دون بدرو بأن يتخلى عنها ؟

جعلت تفكر فى الامر ، كما وعدت الملك . وفى الوقت نفسه كان الشريفان العدوان قد عزما على أن يتما ما أحجم عنه الملك فقتلاها

ولما عرف دون بدرو بما حدث، جن جنونه ، وبلغ حزنه مبلغا لايوصف ، وقرر أن ينتقم . ولكن كيف ذلك ، وأبوه لا يزال ملكا ، والقاتلان فى حماية ابيه ؟ لابد من الانتظار ، ريثما يؤول العرش اليه

▭

وارادت الاقدار أن لا يطول انتظار الامير ، فقد مات أبوه بعد مقتل اينس بقليل ، وارتقى دون بدرو العرش ، واصبح ملكا على البرتغال ، وصاحب السلطة التامة المطلقة على شعبه ... وعلى الشريفين القاتلين !

وكان انتقامه رهيبا، فقد القى القبض على الشريفين ، وأمر بتعذيبهما ، ونفذ الامر امام عينيه ، خلال مأدبة اقامها لاصدقائه

وكان البرتغاليون فى ذلك الزمن أبرع شعوب الغرب فى تعذيب الاسرى والتفنن فى هذا الى حد يصعب على العقل تصديقه

عيون تفقأ ، السنة تقطع ، اظافر تنتزع ، عظام تحطم ، جلود تسلخ من الاجسام ، أطراف تحرق بالنار، كل ذلك كان الحكام ينزلونه بالمتهمين او المغضوب عليهم من الرعايا

وقد أذاق الملك بدرو غريميه بعض هذه الالوان من التعذيب ،ثم أمر بأن يفتح القبر ، قبر الزوجة المقتولة التى دفنت قبل ذلك بسنتين ، وأن تخرج منه الجثة التى تطرق اليها الفناء ، واكب عليها

يغمرها بالقبلات ثم أمر بأن تزين الجثة بالثياب والحلى ، وتوضع على مقعد مستطيل ويمر الاشراف امامها ، وفى مقدمتهم الشريفان المذنبان ، ويقبلوا يدها ، كما لو كانت حية جالسة على عرش

ارادها ان تكون ملكة بعد موتها لان اباه حال بينها وبين جلوسها على العرش وهى على قيد الحياة

واعلن الملك بدرو أن زوجته التى ماتت قد اخرجت من القبر ، وان كانت لم تبعث من الموت الى الحياة ، وقرر أن تكون ، وهى ميتة ، ملكة على البرتغال ، تشاركه العرش ، وتتقبل التحية والاجلال ! وخضع الشعب البرتغالى لارادة ملكه ، ونفذ اوامره !

وكان العلماء قد حفظوا الجثة بقدر ماتسمح لهم معرفتهم بالتحنيط فى ذلك الوقت . وتبوأت الجثة عرشا بجانب عرش الملك

ومر الزمن والملك يرغم الناس على السجود امام الجثة المتوجة ، وتقبيل يديها ، ومخاطبتها كما تخاطب الملكات ، وظن الناس انه مجنون . ولكنه لم يكن مجنونا . فان اعماله كملك ، بالنسبة الى ادارة شؤون الدولة ، وتنظيم أحوالها ، ورسم سياستها ، وقيادة الجيوش فى الحرب ، كل تلك الاعمال كانت أعمال رجل عاقل ، بعيد النظر ، عالى الهمة ، امين على مصلحة شعبه

وتمكن أصدقاؤه ، واهله ، من اقناعه بأن يعيد الجثة الى القبر ، فأعادها ، وشيد على الضريح نصبا « تذكاريا » يخلد اسم الملكة التى توجها بعد موتها

وأصدر الاوامر الآتية :

« عندما يحل اجلى ، اريد ان ادفن فى الضريح الذى ترقد فيه المراة التى أحببتها . لتوضع جثتى امام جثتها ، بحيث تكون قدماى ملاصقة لقدميها ، من الطرف ، حتى اذا ماجاء يوم البعث ، ونهض كل منا فى مكانه ، وجد صاحبه وجها لوجه فتكون أول نظرة نتبادلها ، اينس وانا ، نظرة حب وهيام ! »

عاش بدرو الرابع ، زوج اينس دى كاسترو ، ٣٢ سنة بعد وفاة زوجته ، وظل يذكرها ، ويندب حظه وحظها ، ويبكى كلما لفظ احد اسمها امامه ، ومات سنة ١٣٨٧ ، ودفن حسب وصيته التى أملاها قبل موته ، وجثته ترقد اليوم فى ضريح واحد مع الحسناء التى جعل منها ملكة بعد موتها

والزائرون الذين يمرون امام ذلك الضريح ، يقفون خاشعين ، ينظرون الى البلاط الذى يعلو القبر ، والى التمثالين اللذين يعلوان البلاط ، ويقرأون الكتابة المحفورة على اللوحة التذكارية

ان هذه الكتابة المقتضبة تروى اروع قصة غرام عاشها ملكان ، واعظم دليل على الوفاء اعطاه ملك الملكة ، بل رجل لامراة ، وعاشق لمعشوقة

ليدي هاملتون
المرأة التي سحرت الجنرال نلسون



فتنت بجمالها كثيرا من الرجال فتراموا على اقدامها ، ولكنها احبت في حياتها مرتين حبا ملك عليها فؤادها ..

في غرفة حقيرة في شارع فرانسيز بميناء كاليه الفرنسية ، كانت امرأة بدينة تتقلب على فراشها وهى متدثرة بغطائها الرث البالى ، وقد مسحت الكهولة والمرض والفقر والآلام من وجهها ذلك الجمال الخلاب الذى اشتهرت به فى جميع انحاء أوربا

كانت هذه المرأة هى «أماهاملتون» وكانت مشرفة على الموت ، ولم يكن يخالجها شك فى دنو اجلها ، وانها ملاقية ربها بعد قليل . ونظرت الى النساء الثلاث اللاتى احطن بها ، هوراتيا ابنتها والمرضة وصاحبة المنزل ، وطلبت منهن أن يغادرن الغرفة ، وان يتركنها وحدها

كانت الحياة الحافلة بالمغامرات ، وكل متع الدنيا على وشك الزوال !

وها هو ذا نجمها الذى تألق فى كبد السماء حقبة طويلة من الزمن ، قد آذن بالافول والمغيب ، وسينساها الناس ، كما نسوا من سبقوها ، وستطوى ذكراها فى قبر سحيق

وعادت بها الذكرى الى الماضى

الذى حفل بالذكريات الجميلة البديعة ذلك الماضى الذى ارتفعت فى خلاله من الخمول الى أوج الشهرة والمجد، ثم انتهى بها الى هذه الميتة الحقيرة، فى غرفة زرية قذرة ، تخايلها فيها الاشباح الساخرة

وكرت بها الذاكرة الى الماضى الموغل فى القدم ، الى تلك الايام التى كانت فيها فتاة صغيرة ، لم تشب عن الطوق بعد ، ومع ذلك كانت تلعب بقلوب شبان قريتها هواردين احدى قرى سيشين ، وكان ابوها حدادا ، غير انها لم تستطع يوما أن تذكر عن ابيها شيئا ، لانه قضى نحبه وهى لا تنفك طفلة صغيرة . ولكنها تذكر امها تماما . لقد كانت تعمل طاهية ، ولما بلغت الرابعة عشرة الحقتها امها ببعض الاعمال

تلك ايام لا تذكر منها الا ضروبا من العبث العابر ، ولكن حياتها لم تبدأ الا حين بلغت السابعة عشرة ورحلت مع أسرة الدكتور « بد » ، واشتغلت مربية اطفال

وافتر ثغر المريضة عن بسمة خفيفة لهذه الذكرى . انها لم تنجح النجاح المنشود كمربية اطفال ، فقد بهرتها لندن بما احتوت من حوانيت كثيرة فخمة، وسيدات جميلات أنيقات، وأهم من كل هذا أولئك الشبان ذوى الرشاقة والاناقة

وما كان أسرع « اما » فى ان تدرك ان جمال كثير من السيدات الجميلات كان يتضاءل ويخبو الى جانب حسنها الوضاء . ولشد ما كان يسرها حين ترى رفقاء هاتيك النسوه يكثرون من النظر الى تلك المربية المليحة ، والتطلع الى جمالها المشرق

ثم تنقل بها الحظ ، فاصبحت بائعة فى حانوت ، وانها لتذكر تلك السيدة الجميلة التى اقبلت على الحانوت الذى كانت « اما » تعمل فيه ، فانتزعتها منه ، والحقتها وصيفة لها ، واذ ذاك تفتحت عيناها على الكثير من الامور ، وعلى أسرار لم تكن تحلم بالوقوف عليها . وانها لتذكر الكابتن « جون بين » حين اقبل عليها يغازلها فى رقة وهى الوصيفة ، فلم تتردد ، وأسلمته قيادها ، وكانت فى الثامنة عشرة

وأنت المريضة أنة خافتة حين تذكرت أول طفلة لها ، وكانت قد أسمتها « أما الصغيرة » ، وقد توفيت وهى فى الرابعة والعشرين

ووجدت الوصيفة نفسها فى مأزق خطير . كانت أنوثتها قد بدأت تتفجر ، وجمالها يزدهر ، حين اصبحت اما ، فاندفعت فى مغامرات كلها استهتار عظيم ، وخفة بالغة ، تبيع جمالها ونفسها فى غير تحفظ

ورآها السير هارى فيزد ستنهو فى معرض جون جراهام ، فحملها الى منزله فى ساكس ، ومرت ايام وشهور حفلت بالمغامرات الغرامية العديدة مع بعض أصدقاء السير هارى انها لتذكر مبلغ استهتارها فى تلك الايام استهتارا أفزع حاميها فطردها وهى توشك أن تصبح أما للمرة الثانية

ولشد ما أحزنها ما آلت اليه

حالها في تلك الايام العصيبة، واضطرها أن تجد نفسها بغير معين ، فكتبت الى تشارلس جريفيل ، وكانت قد التقت به في منزل السير هاري - والبي جريفيل نقلها ، وآواها في داره ، وما كان الهناء أيامها التي قضتها عند تشارلس في منزله الخلوي ، فقد كان عظيم العطف والحدب عليها بادىء الامر ، جم العناية بها ، فأتى اليها بأساتذة في الموسيقى والغناء واللغات ، وقدمها الى المصور الشهير « رومني » الذي جن بجمالها ، فصورها في عدة لوحات ، وقضى معها بضع ليال جميلة ، كانت في خلالها تغنى له بصوتها الشجي العذب، والفنان يكاد يلتهمها بنظراته وهو مفتون مسحور

بيد ان قلبها كان عالقاً بحب تشارلس مفتوناً به ، فقد أحبته من أعماق فؤادها حباً لم تمنحه امرأة لرجل قبلها . لقد كان تشارلس هو في الواقع حبها الاول ، وهو اول من خفق له قلبها خفقان الحب والغرام . اما تشارلس فكان في واقع الامر لا يأبه بها من هذه الناحية ، ولا يوليها الا ضرباً من الاهتمام الجاف ، لقد كانت في نظره مجرد متعة جميلة ، وليست مصدر حب عميق

وفي عام ١٧٨١ رآها عمه السير وليام هاملتون ، فأعجب بها

والقضى عامان وهي هائمة بالحياة في كنف الرجل الذي يهواه قلبها ، وكان تشارلس رجلا متلافاً مبذراً ، فركبته الديون ، وبعث الى عمه يطلب منه العون ، فعرض عليه السير هاملتون ان يتولى سداد ديونه على ان يتنازل له عن « اما » وكان تشارلس قد مل عشرتها فبعث بها هي وأمها الى عمه السير هاملتون الذي كان في ذلك الوقت سفير انجلترا في مدينة نابلي ، ولم يسع « اما » رغم اعتراضها بادىء الامر الا الرضوخ ، وما انقضت عليها اربعة ايام في دار السير هاملتون حتى عرفت نصيبها ، وأنها ستكون للعم كما كانت لابن اخيه

في غرفة حقيرة في شارع فرانسيس ببيته ماتت « اما » كانت نهاية ليدي هاملتون اكبر مغامرة عرفها التاريخ

وثارت نفسها في بادىء الامر ثورة مرة رهيبة ، فقد وجدت آمالها في الذي تحبه محطمة تحت اقدامها ، وان صورة الرجل الذي احبته بإيه قلبها ستغيب عن ناظريها ليحل مكانه ذلك الكهل السير وليام على ان « اما » قلما كانت تتأمل ما قدر لها ، ولهذا خضعت لنصيبها في الحياة ، وما انقضت ثمانية اشهر حتى اصبحت دور نابلي تهمس بأن السفير البريطاني قد استحوذ على محظية رائعة الحسن والجمال

وجن جنون نابلي بجموعها المرحة ، وفتاتها وشعرائها وموسيقييها بجمال تلك المرأة التي ظهرت في سماء تلك المدينة فجأة ، وبدأت كل اوربا تتحدث عن رقصها البديع ، وجمالها الفتان ، وصوتها الطروب ، وذكائها الرائع

وبعد سنوات ، وفي غضون رحلة الى انجلترا تزوجت السير وليام هاملتون ، فلما انتقلت من مكانة الخليلة الى مكانة الزوجة المحترمة قدمت الى الملكة ماريا كارولينا ، وسرعان ما اصبحت المرأتان صديقتين

ولقد قيل انها في عام ١٧٩٦ امدت الحكومة الانجليزية بمعلومات قيمة وانباء خطيرة كانت لها اهمية عظيمة للأسطول البريطاني ، كما انها في عام ١٧٩٨ استطاعت ان تمد الماء والمؤونة للأسطول الانجليزي في جزيرة صقلية تمهيداً لقيامه بالحملة على الاسطول الفرنسي في ابي قير

وكانت الليدي هاملتون قد بلغت الثلاثين من عمرها حين وقعت تلك الحادثة الصغيرة التي كانت بداية قصة تاريخية عظيمة تناقلتها الافواه ولاكتها الالسن ، ودونت في بطون الكتب . ذلك ان البارجة الانجليزية « اجاممنون » احدى بوارج الاسطول البريطاني القت مراسيها في خليج نابلي في زيارة قصيرة ، وهبط قبطانها الى البر ليقسلم

تحيته واحترامه الى السفير البريطانى السير وليام هاملتون

وكان القبطان رجلا ضئيل الجسم ذا وجه طويل نحيل ، ولكنه كان عريض الجبهة ، ثابت النظرات ، قوى الشفاه ، وكان اذا تكلم سمعت لهجة الرجل الذى يحكم ويتسلط ، وكان اسمه هوراتيو نلسون

ومكث نلسون بضعة ايام فى ضيافة السفير وزوجته الليدى هاملتون التى عدته ضيفا عاديا من الوهلة الاولى ، ولكنها ألفت نفسها تعجب بثقة ذلك الرجل بنفسه ، وعظيم تقديره لشخصه ولوطنه

▱

ولما رحل نلسون قال هاملتون

ـ هذا القبطان الصغير الشأن مجهول اليوم ، لا يذكره انسان ، ولكن تذكرى كلامى يا عزيزتى ، فاننا سنعيش حتى نراه واحدا من عظماء الرجال

وأومأت زوجته اليه برأسها فى صمت ، وهى تعجب للفراغ الذى تركه ذلك الرجل فى قلبها بعد رحيله ولكنها اعتقدت انها فى خلال أيام ستنساه وستنسى كل شىء عنه

بيد أن الايام والشهور مرت بها دون أن تنسى القبطان نلسون ، بل لم تستطع أن تنساه ، لان المواقع الحربية كانت تتوالى بعضها فى اثر بعض ، وفى كل موقعة يعلو اسم نلسون ويرتفع نحو الجوزاء شيئا فشيئا ، ويرتقى من درجة الى درجة ، وينتقل من نصر الى نصر

ثم تولى الاميرال السير هوراتيو نلسون موقعة النيل ، وانتصر فيها الانتصار العظيم وفى اهتياج شديد استقلت الليدى هاملتون مركبة فخمة ، ووضعت على جبينها تلك الكلمات « نلسون والنصر العظيم » ، وراحت تجوب شوارع نابلى

وخرجت نابلى عن بكرة ابيها وفى مقدمتها الملك والملكة والسفير البريطانى وزوجته فى الزوارق لاستقبال ذلك البطل الظافر

ولم تستطع الليدى هاملتون صبرا حتى يحاذى زورقها البارجة الحربية ، بل عجلت بالوثوب اليها وكانت قد انقضت خمس سنوات على آخر مرة رأته فيها ، فوثبت الى سطح المركب حيث وقف نلسون

ليدى هاملتون ... للفنان رومنى

بين ضباطه ، ثم وقفت فى فزع ورعب ، فقد وجدت كما من كمى ثوبه متدليا الى جانبه ، ووجدت عينا غائرة ، فصاحت :

ـ أوه ! يا الهى ! أهذا ممكن ؟

ولكنها هى التى قادته الى الشاطىء بين مظاهر الحفاوة الرائعة، وهى التى تولت معالجته وتمريضه، وهى التى ظلت تركب معه الى كل جهة ، وتتناول الطعام معه ،وترحل معه الرحلات الجميلة

ومضى الشهر اثر الشهر حتى اصبحت قصتهما حديث كل صالون فى نابلى ، وفضيحة فى لندن ،واخطر الانباء فى كل قطعة من قطع الاسطول

بيد أن الليدى هاملتون كانت تعلم انهم جميعا قد اخطأوا الخطأ الكبير ، فانها وان كانت قد نصبت نفسها لاسر قلب ذلك البطل العظيم الذى اصبح أكبر شخصية فى تلك الايام ، وقضت ثمانية عشر شهرا تعالج اقتناص قلبه ، الا انها فشلت الفشل المزرى . كانت على يقين أنه يعجب بها بل ويحبها ، ولكن وفاءه لزوجته ، ومبادئه الدينية ، وعظمته النفسية ، حالت بينه وبينها ، ووقفت حائلا منيعا . وكم من مرة كانت تعترف فيها لنفسها



ليدى هاملتون : صورة اخرى لرومنى

انها لا تستحقه ، وانه رجل عظيم ، أما هى فامراة حقيرة مدنسة

غير انها ظفرت به فى النهاية فى تلك الرحلة البحرية من نابلى الى مالطه ، وكانت الظروف قدساعدتها كان قلبها مثقلا بالهموم ، فقد كانت تعرف أن نلسون سوف يذهب الى مغامراته البحرية فى وقت قريب ، وانها قد لا تراه مرة اخرى مدة أعوام طويلة ، وكانت فى اواخر عقدها الرابع ، وبدأ جسمها ينمو ويزداد بدانة وترهلاً ، وسيزداد بدانة على مر الايام ، وزوجها الكهل المريض لن يبقى طويلا

ورات نفسها بعين الخيال

وقد اصبحت ارملة بدينة قد ذوى جمالها ، وخبا حسنها

واضطربت خواطر نلسون كذلك، فلم يكن قد رأى زوجته منذ خمس سنوات ، وعلى الرغم من وفائه لها فقد كان يرى صورتها تخبو وتتلاشى الى جانب صورة الليدى هاملتون الفتاة الجميلة التى لازمته مدى ثمانية عشر شهرا

وشهد القمر فى تلك الليلة اول آيات الغرام ، بين بطل تلك الساعة هوراتيو نلسون وبين بطلة الحسن والجمال الليدى هاملتون

□

وتذكرت المريضة المدنفة الاعوام السعيدة التى تلت تلك الليلة ، وتذكرت هوراتيا الصغيرة التى اعقبتها من عشيقها فى العام التالى، ثم موت زوجها بعد عامين اثنين ، زوجها الذى ظل حتى مماته يعتقد فى طهرها وعفتها ، ولهذا خلف لها ايرادا سنويا قدره ٨٠٠ جنيه

وتذكرت موت الطفل الثانى الذى اعقبته من نلسون ، وانفصال نلسون عن زوجته المتكبرة التى ظلت تحب زوجها حتى بعد الطلاق

وتذكرت الى جانب كل ذلك ازدياد غرام نلسون بها ، واشتداد أوار حبه لها ، ورحيلها معه الى منزله فى ميرتون ، وحديثه معها وهما يسيران جنبا الى جنب على البساط الاخضر فى حديقة المنزل ، عن اعتزامه تولى آخر موقعة له ، وهى الموقعة التى عرفها العالم باسم موقعة الطرف الاغر ، وقضى نلسون نحبه فيها

وكان من جراء موته أن تجمعت السحب فى سماء حياتها ، وعلى الرغم من انها تسلمت ايرادا سنويا من نلسون قدره ٥٠٠ جنيه الى جانب أرباح ٤٠٠٠ جنيه خلفها لابنته ، فقد مستها الحاجة الى المال فقامرت حتى تراكمت الديون عليها وظلت تقامر وتقامر ابتغاء الربح ، ولكن السعد كان قد فارقها ولازمها النحس . وكان جمالها يذوى على مر الايام ، وظلت ثروتها تتناقص شيئا فشيئا ، فبعثت الى صديقتها الملكة كارولينا تلتمس منها قرضا ، فخيبت الملكة أملها ، ورفضت ملتمسها ، فولت وجهها شطر الحكومة تلتمس منها معاشا لها باعتبار انها خدمت الحكومة الانجليزية ، ولكن الحكومة ابت عليها ذلك

والقى بها فى غياهب السجن فى النهاية حين لم تستطع سداد ديونها ، وقضت فيه عشرة اشهر وأخيرا فرت الى فرنسا

وفى تلك الغرفة الحقيرة كانت تحتضر اكبر مغامرة عرفها التاريخ

« ٢ م ٠ »

يقول التاريخ في كثير من اليقين انها كانت امرأة فاتنة ، كانت ذات عقل راجح ، ورأي صائب ، وجرأة وشجاعة

الزباء ملكة تدمر

الحسناء العربية التي حاربت الرومان



انني معجب برأيك ياعزيزتي كل الاعجاب . ويعجبني منك هذا الذكاء المتوقد وتلك الحكمة التي تبدينها في آرائك »

فبسمت بسمة خفيفة وقالت :

ـ ان الفضل يرجع اليك يامولاي ، فانت احكم الحكماء واعقل العقلاء ، وما رأيت منك ، منذ زواجنا الى اليوم ، الا كل مايثير الاعجاب، فانت المنهل الذي انهل منه

ثم اتسعت ابتسامتها وقالت :

ـ ولا تنس يامولاي ان الحكمة والذكاء معديان

فانفجر الملك ضاحكا وقال وهو طروب بمديحها وثنائها وحسن اسلوبها :

ـ بل لا تنسي انت ان الارض الخصبة هي التي تنبت الغرس وتنميه . انت يازنوبيا درة في تاجي

كانت هي زنوبيا او الزباء ، ملكة بالميرا ، والتي اصبحت بطلة من بطلات التاريخ

وكان اسمها الاصلي سبتيميا زباء

ووجد الملك اودينانس ان هذه المرأة الرائعة في حسنها وجمالها

وتوقد ذكائها ، وحسن دهائها خير من تشاركه الملك ، فتزوج منها ، وكان فى ذلك الوقت زعيما على عدة قبائل فى الصحراء ، واميرا مهابا ، ولكنه كان الى جانب ذلك رجلا عظيم الطموح ، قوى الجنان ، جريئا شجاعا ، وما انقضى وقت طويل حتى اصبح اكبر ملوك الشرق

ولم يسع الامبراطور الرومانى حين أيقن ان أوديناتس ليس بالرجل الهين ، وانه رجل يرهب جانبه ، الا ان يخطب وده ، والا ان يتعاقد معه فى محالفة صداقة وود . ومن ذلك اليوم أطلق على الملك أوديناتس لقب « اجستوس قائد الشرق » ، واجستوس هو لقب التعظيم والتبجيل الذى كان يطلق على اباطرة الرومان

واستطاع اوديناتاس بمحالفته مع الرومان ان يفوز بانتصارات عظيمة على شاه ايران ، واستطاع ان يهزم جيوش الشاه مرتين ، وان يردها الى عقر دارها

وكانت زوجته الملكة زنوبيا تتابع سياسته عن كثب ، وتشترك معه فى كثير من الامور الداخلية والخارجية وتعنى بالوقوف على كل التفاصيل حتى حذقت امور السياسة ، واصبحت يده اليمنى فى كل شىء ، وعضده المتين الذى يستند اليه

وتوفى الملك اوديناتس ، وتقول الرواية ان ابن اخيه قد ذبحه وهو يقوم باحدى غزواته ، لسبب غير معروف ، وربما كان طمعا فى الملك ، غير ان الملكة زنوبيا لم تمهله ، وانتقمت لزوجها انتقاما قاسيا

وكان اولادها اطفالا صغارا لا يصلحون لتولى الحكم ، فتولت الملك نيابة عن ابنها الاكبر « وهب الله » وكانت تسميه كذلك «أثينودوراس» وهو اسم يونانى ، ذلك لانها كانت تجيد اللغة اليونانية وتحبها وتكتب بها ـ ثم انتهى بها الامر الى ان اعلنت نفسها ملكة على المملكة التى ورثتها عن زوجها

□

يقول بعض المؤرخين عن زنوبيا انها كانت ابنة زعيم عربى اسمه عمرو بن ضارب بن حسان ، ويزعم آخرون انها من اصل يهودى ، ويستندون فى هذا الى انها كانت كثيرة العطف على اليهود فى غضون حكمها ، غير انها هى نفسها كانت تزعم انها من سلالة ملوك مصر المقدونيين ، ولم يجزم المؤرخون برأى فى هذا الصدد ، ولهذا لايمكن القطع بحقيقة اصلها

ان كل مايثبته المؤرخون فى كثير من اليقين هو انها كانت امراة فاتنة خلابة الحسن ، وانها كانت الى جانب جمالها الفتان ذات عقل راجح ورأى صائب وحكمة وذكاء متوقد ، وانها كانت جريئة مقدامة ، وكانت تجيد كثيرا من اللغات كاللاتينية ، لغة الرومان ، واليونانية ، والمصرية ، او بمعنى اخر ، كانت تجيد اللغات الحية فى ذلك العصر

ويعزو المؤرخون الثقاة انتصارات زوجها العديدة وفتوحاته الجمة ، حتى علا شأنه ، الى شدة بأسها وحصافة رايها وجرأتها ، وخلوها من كل عوامل الضعف . ومن الثابت فى تاريخها انها كانت تشارك زوجها فى حفلات الصيد والقنص ، دون ان ترهب الحيوانات المتوحشة المفترسة

هذه هى زنوبيا او الزباء ، الملكة التى تولت الحكم بعد وفاة زوجها ، واصبحت ملكة بالميرا

وكانت اشد من زوجها طموحا ، فاعتزمت ان تحكم البلاد حكما يتميز عن زوجها ويتفوق عليه ، فبدات عهدها بان عاملت رعيتها بالعدل والقسطاس ، وسارت بينهم سيرة حكيمة ، فكانت اذا اضطرت ان توقع جزاء على أحد ، اضعفت فى نفسها عوامل الرحمة ، واذا ماوجدت مجالا للعطف ، قاومت فى نفسها عوامل الجبروت والانتقام ، كانت تتخلى فى احكامها عن العواطف التى تجمح بالحاكم وتخرجه من نطاق العقل والانصاف . كانت تحكم العقل والروية فيما تصدره من احكام دون ان يكون لعواطفها الشخصية تأثير عليها

اما فى غير الاحكام فكانت شديدة العطف على رعاياها ، لاتفرق بين أمير وصعلوك ، ولا بين كبير وصغير كلهم سواء فى نظرها

ولانها امراة مثقفة فقد نال العلماء والادباء والفنانون نصيبا وافرا من سخائها وكرمها واغداقها عليهم بالمال ، بل كانت تستقدم امثالهم من البلاد الاخرى ، وتجمعهم حولها ، رغبة منها فى ان تزدهر العلوم والفنون والاداب فى عهدها

اما بالميرا عاصمة ملكها ، والتى قيل ان سليمان هو الذى انشأها وسط الصحراء لتكون ملجأ للقوافل من وعثاء السفر ، فقد بلغت فى عهد الملكة زنوبيا من القوة والعظمة ما جعلها مدينة عظيمة ، وقبلة الناس فى الشرق والغرب

ولم تكتف الملكة زنوبيا بتجميل العاصمة بالعمائر الضخمة والحدائق الغناء ، والشوارع الفسيحة الممهدة ، بل اتجهت الى تحصين البلاد من غزو الاعداء ، فانشات حصونا عديدة وصلت الى حدود كلدانيا وانسيرا وتيانا ، واعدت جيشا ضخما كبيرا مجهزا بالاسلحة

وفى عام ٢٧٠ ميلادية بعثت بجيشها تحت قيادة زابدا الى مصر فاحتلها ، بدعوى ردها الى حظيرة روما

وكان ذلك فى عهد الامبراطور كلوديوس الرومانى الذى قبل هذا الوضع ولم يعترض عليه

ثم بدات متاعب الملكة زنوبيا حين توفى هذا الامبراطور ، وخلفه فى حكم روما الامبراطور اورليان ، اذ رأى هذا الامبراطور ان سياسة ملكة بالميرا فيها خطورة عظيمة على وحدة الامبراطورية وان ثم خطرا محدقا

بامبراطوريته ، وانه اذا لم يوقفهـا عند حدها ، فان امرها سيستفحل وتصبـح فى موقف قد تملى فيـه شروطها عليه

◘

من اجل هذا اعد اورليان جيشا لجبا اتجه أول ما اتجـه الى مصر فاستعادها بقيادة قائده بروباس فى اواخر عام ٢٧٠ م . وفى اواخر عام ٢٧١ م تولى اورليان نفسه قيادة جيشه وسار به فى سهول اسـيا الصغرى ، واستطاع فى سهولة ان يتخطى الحصون التى اقامتها الملكة زنوبيا حتى وصل الى انتيوك

واقبلت النذر الى زنوبيا تقول ان اورليان فى طريقه الى العاصمة ، ثم اقبلت رسل الامبراطور موفدة من قبله الى الملكة ، فدعتهم الى المثول بين يديها وقالت لهم :

ـ انى مصغية الى رسالة مولاكم

فقال رئيسهم :

ـ منذ أعوام طويلة ، وثروة مصر والشرق ترسل الى الخزانة الرومانية ، لكنها تحولت فى عهدكم الى خزائن ا ، فقد كانت مصر وسـورية وغيرهما من الاملاك الرومانية ، ولم تكن ملكة بالميرا الا ملكة على بالمـيرا فقط ، ولكنك اليوم ملكة على بالميرا مصر والشرق ، واطلقت على نفسك لقب اوجستيا الامبراطورة الرومانية ، والبست اولادك لباس القياصرة ، فاذا كان الامبراطور السابق قد اقر هذا الوضع وسمح به ، فان اورليان الامبراطور العظيم لايسمح به . ومع احترامه واجـلاله لعظمة زنوبيـا وذكائها ، فان واجبـه نحو مجـد الامبراطورية الرومانية يدعوه الى ان تعود الامبراطورية الى حدودها التى كانت عليها فى زمن انطونيو

فقالت فى صوت هادىء رزين :

ـ لقد تكلمتم فى وضوح كمايجب على الرومانى ان يفعل

ثم اتقـدت عيناها بالـكبرياء ، واستطردت قائلة :

ـ والآن فاستمعوا الى ، وانقلوا ماتسمعون الى موفدكم . قولوا له ان الامبراطورية التى ارتقيت عرشها قد صاغها زوجى معى ، فهى ليست منحة ولكنها ميراث وغزو وتملك وقولوا لمولاكم انى كما عشت ملكة ، فانى ساموت ملكة ان شاء الله ، واذا كان الامبراطور اورليان طموحا فانى مثله طموحة ، اطمع فى امبراطورية اكبر ، وفى شهرة اوسع ، وفى حب رعيتى لى

وصرفت الرسل ، وبدات تستعد للدفاع عن ملكها ، ثم آثرت الا تنتظر حتى يأتى الجيش الرومانى الى ديارها بل جهزت جيشها وبعثت به تحت قيادة زابدا ليعيق تقـدم الجيش الرومانى ، ويوقفه عـند حده ، والتقى الجيشان فى معركتين ، وكانت زنوبيا تغامر بحياتها وسط المعركتين ، ورغم مابذلت من جهود مضنية فقد هزمت فى كلتا المعركتين قرب اميصا (حمص الآن) ، واضـطرت الى

التراجع الى بالميرا عاصمة ملكها ، وقامت بانشاء التحصينات القوية ، وعادت فنازلت جيش اورليان من بروجها فهزمته فى المعركة الاولى حتى لم يسع الامبراطور اورليان الا ان يكتب عنها :

« ان الذين يتحدثون باحتقار واستخفاف عن الحرب التى خضتها ضد امراة ، يجهلون طبيعة زنوبيا وقوتها وشدة مراسها ، فان من المحال ان يحصر استعدادها الحربى من حجارة وسهام ومن مختلف انواع الاسلحة وادوات الحرب »

وحاصر اورليان المدينة ليمنع عنها المؤونة ، وادركت الملكة حرج موقفها ، وان المدينة ستسلم فى وقت قريب اذا لم تأت نجدة لها من الخارج

ومما يدل على قوة جنان هذه الملكة العظيمة وشدة بأسها وجرأتها انها فكرت فى الفرار خلسة من المدينة والذهاب الى ملك الفرس لطلب نجدة منه تنقذ بها بلادها ، ولكن العيون التى كانت تترصد حركات اهل المدينة رأتها وهى ممتطية جوادها ومنطلقة فى طريقها الى بلاد الفرس ، فتبعوها واسروها على شواطىء نهر الفرات

وجيىء بها اسيرة امام الامبراطور اورليان فسألها :

ــ كيف تجرؤين على تحدى سلطة روما ؟

فأجابت فى شمم :

ــ انى لا اقبل الخضوع لاحد . اما وقد استطعت ان تأسرنى فلا يسعنى الا أن اخضع لك كغالب

وطلب الجيش منه قتلها ولكنه ابقى عليها لتكون مظهر انتصاره العظيم حين يدخل روما

واخذ طريقه الى روما ومعه زنوبيا ، مبقيا على جانب من الحرس فى بالميرا ، غير انه ماكاد يبتعد قليلا حتى بلغه ان ثورة قامت فى بالميرا ، فعاد ادراجه وخرب المدينة وجعلها اطلالا

وقد اختلف المؤرخون فى امر حياتها بعد الاسر ، فقال بعضهم انها اضربت عن الطعام حتى ماتت ، وقال البعض الاخر ان الامبراطور وهبها دارا فسيحة بحديقة غناء عاشت فيها وهى موضع احترام واجلال ، وانها زوجت بناتها من اشراف العائلات الرومانية ، وان ابنها صار ملكا على جزء من ارمينيا

والقول الاخير هو الذى يؤكده المؤرخون

والتاريخ لايذكر الا القليل التافه من حياتها الشخصية ، بيد ان الذى قيل عنها ان ملكة كانت شديدة البأس ، وترملت وهى لاتنفك فى اوج شبابها وجمالها ، لايمكن ان تحرم نفسها من متع الدنيا ، فكان لها عشاق تختارهم لنفسها ، وتستمتع بهم سرا فى غير علانية رغم انها كانت تحكم بلادها بيد من حديد ، ولا تخشى لومة لائم . لقد كان الحكم عندها فى المقام الاول ، اما الحب والغرام والمتعة فامرها هين يمكن الظفر بها فى ستر وسلام

سارة برنار

بقلم الأستاذ أحمد عبد القادر المازنى

حامت حولها لشبهات ، وطوقتها الريب ، واتهمت بأنها استطاعت أن تفتن ألباب الكثيرين من عظماء الرجال فى عصرها ، وتستهوى قلوبهم ، وكان من بينهم قيصر الروسيا ونابليون الثالث ، والبابا بيوس التاسع . وان كثيرين ممن أعرضت عنهم آثروا الموت انتحاراً وفضلوه على الحياة بعيدا عنها — معرضة عنهم

وقد تألفت طوائف من النساء فى شبه جماعات فى كل مكان كانت تحل به ساره برنار لحماية الازواج والابناء والإخوة من عبث هذه المرأة الطاغية اللعوب ، ومن فتنتها وسحرها الآسر .

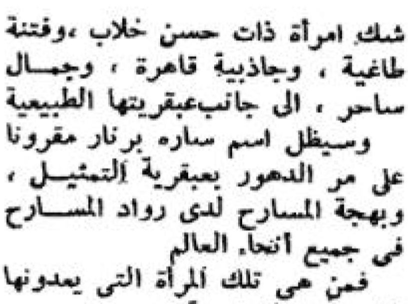
ومن المرجح أن لا تتكشف حقيقة المبررات لكل هذه الاتهامات التى انصبت على رأس هذه المرأة من كل صوب ، ولكن الذى لا ريب فيه ولا جدال البتة ان ساره برنار الممثلة الفرنسية التى تألق فنها وازدهر خلال خمسة وسبعين عاما على المسارح الفرنسية كانت حقيقة وبلا أدنى



سارة برنار فى دور راهبة



فاتنة المسرح



شك امرأة ذات حسن خلاب ، وفتنة طاغية ، وجاذبية قاهرة ، وجمال ساحر ، الى جانب عبقريتها الطبيعية

وسيظل اسم ساره برنار مقرونا على مر الدهور بعبقرية التمثيل ، وبهجة المسارح لدى رواد المسارح فى جميع أنحاء العالم

فمن هى تلك المرأة التى يعدونها كليوباترا الفرنسية ؟

وأى العناصر استطاعت أن تتآلف وتندمج وتتفاعل ، ثم تخرج فى النهاية مثل هذه المرأة العجيبة ؟

ليس من السهل الرجوع الى ماضى ساره برنار، فانها كانت تحف نفسها بما تخترعه مخيلتها ، وقد قال أحد مديرى المسارح الباريسية فى هذا الشأن قولته المشهورة: « ان ساره برنار تغير أسلافها كما تغير ثيابها ، أو كما تغير أرواحها التى تبدو فيها خلال أدوارها »

على ان البيانات الاخيرة التى يمكن الاعتماد عليها تذكر ان جدتها لأمها كانت فتاة من أسرة طيبة من بلدة « بريتون » ، وأن هذه الجدة أحبت

« البقية على الصفحة التالية »

سارة ترتدى ملابس التمثيل

طبيبا شابا ، وهامت بهواه ولم تستطع عنه بعدا ، فلما رحل الى برلين تبعته على الاثر ، وعاشت فى كنفه ، وأعقبت منه فتاتين هما « جوليا » و « روزين » . وقد نكبتا بوفاة أمهما فى سن مبكرة

وكان الأب قاسيا غليظ القلب ، فلم تحتمل الفتاتان العيش معه ، فهربتا قبل أن تبلغا الخامسة عشرة من عمرهما

واندفعت الفتاتان بحكم هذا التشرد فى مغامرات غرامية متتابعة فى باريس ولندن وغيرهما من المدن الكبيرة

وكانت ساره برنار ثمرة احدى هذه المغامرات عام ١٨٤٤ . وأمها هى جوليا صغرى الاختين . ومن المرجح أن اباها كان ضابطا بحريا او تاجرا فى مدينة الهافر ، وقد ترك لابنته بعض المال عند أحد المحامين لينفق منه عليها حتى تنال قسطا من التعليم

وكانت أمها جوليا تهوى الرحلات ، ولا تحب أن تحمل عبء ابنتها ، فأودعتها عند مربية مدة ثلاث سنوات أو أربع . ولما بلغت ساره الثانية عشرة من عمرها ، أدخلتها أمها ديرا فى جران شاب . وما أن حلت ساره بين أترابها فى الدير حتى رأينها أعجوبة ، ينظرن اليها فى دهشة ، ويحمن حولها كأنما هى ليست فتاة مثلهن ، ومن أجل شعرها المجعد المشوش أطلقن عليها اسم « الزنجية البيضاء »

وانطلقت هذه الفتاة العجيبة تخدش بأظافرها المعتديات عليها ، وتنطق بألفاظ لم تسمع قط فى ذلك الدير ، فكانت الراهبات يرششنها بالماء المقدس لطرد الارواح الشريرة التى تحتل جسمها ، وتدفعها الى التفوه بمثل تلك الالفاظ المعيبة

وحانت فرصة ذهبية لظهور مواهب تلك الفتاة الشريرة على المسرح ، فقد أعدت راهبات الدير تمثيلية صغيرة لتمثيلها فى حفلة أقمنها لتكريم أحد المطارنة عند زيارته للدير . وفى اللحظة الاخيرة أصيبت الفتاة التى كانت ستقوم بالدور الاول فى هذه المسرحية بفزع ورجفة حالا دون قيامها بدورها ، فتقدمت ساره وتطوعت بالقيام بهذا الدور ، ولضيق الوقت لم يسع الراهبات الا القبول ، فقامت بالدور ، ونجحت فيه أيما نجاح

غير ان الراهبات برغم ذلك رأين ان ساره برنار ستفسد أخلاق الفتيات الاخريات وتشيع بينهن الفوضى والالفاظ النابية ، فقررن طردها ، وبعثن بها الى أمها

وعقد مجلس عائلى ، وراح كل فرد من الاسرة يتنحى عن أخذ ساره عنده ، ويأبى حمل هذه التبعة ، وحين أعيتهم الحيل أخيرا استقر الرأى على ادخالها معهد الموسيقى

▭

ولما تخرجت ساره فى المعهد ، استخدم الدوق دى مورنى نفوذه ، فألحقها بفرقة «الكوميدى فرانسيز» ، ولم تقبل ساره الادوار الثانوية ، التى كانوا يفرضونها عليها ،

ويعهدون بها اليها ، ففسخت العقد المبرم بينها وبين الفرقة ورحلت الى أسبانيا

ولما عادت الى باريس سلكت فى حياتها مسلكا شبيها بمسلك أمها وخالتها تماما

كانت ممثلة فى ربيع العمر ونضرة الصبا ، فتانة المحاسن جذابة ، لا تمثل فى مسرح من المسارح ، ولكنها تظهر بانتظام فى أرقى النوادى الليلية ، وكان همها فى ذلك الوقت مقصورا على ولادة ابنها الذى أسمته موريس ، فلم تعن بالبحث عن عمل

ومنذ ذلك اليوم أصبحت ساره اما تكرس كل جهودها ومشاعرها لذلك الابن

ودفعها حبها الاموى العظيم الى أن تعنى عناية جدية بالتمثيل ، وتمكنت بوساطة بعض أصحاب النفوذ أن تلتحق بمسرح « اوديون » فبرزت مواهبها لأول مرة ، وكان أصدقاؤها يرونها شابة فتية نحيفة القد، طويلة القامة ، ترتدى ثيابا مبتكرة ، ووصفها كاتب كان عظيم الاهتمام بأمرها فقال :

« ان ساره برنار عجيبة حقا تعتريها ألف حالة فى اليوم الواحد ، فتغضب وتثور أو تفرح وتسر كل من كان حولها ، وهى قادرة فى أى وقت على أن تتحكم فيهم جميعا بذلك الوميض المتغير الذى ينبعث من عينيها العجيبتين ، وبصوتها الموسيقى الخلاب »

وانطلق طلبة الحى اللاتينى يشيدون بذكرها والثناء عليها حين بلغت أوجها فى تمثيل مسرحيات شكسبير وراسين ، واندفعوا فى حماسة بالغة فى اظهار اعجابهم بها كممثلة بارعة وكامرأة ساحرة

وكانت ساره تستجم فى الريف عام ١٨٧٠ حين تناهى اليها نبأ الحرب الفرنسية الالمانية ، فأسرعت بالرحيل الى باريس ، وبدأت تلك المرأة المريضة فى انشاء وحدات طبية للجيش ، وفى جمع التبرعات، وفى الترفيه عن الجنود

وبعد عام وقعت حادثة صغيرة ولكنها كانت مفتاح التطور فى حياة هذه الممثلة الفرنسية العجيبة ، فقد كاد يغمى عليها وهى جالسة على المائدة بين ضيفتين طويلتين بدينتين الى حد كبير ، حتى ضاقت ذرعا وأحست انها تكاد تختنق ، ولكنها احتملت فى صبر وجلد هذه الضائقة التى كانت تزهق روحها ، فكان من أثر تلك الحادثة الصغيرة انها اذا ثار احتياجها فانها تضرب بقوانين التعب والراحة عرض الحائط

وعادت أبواب الكوميدى فرانسيز ففتحت لها على مصراعيها بعد نجاحها المنقطع النظير فى بعض المسارح الصغيرة الاخرى غير أن مدير المسرح كان من طبيعته أن يطيل فترة الراحة لكل ممثل حتى لا يرهق بالعمل فلا يجيد ، فلا يجوز مثلا أن يقوم بدورين فى روايتين متعاقبتين. ولم تستطع سارة أن تبقى مدة طويلة خاملة بغير عمل ، فشرعت فى الرسم والنحت ، وأقامت معرضا

خاصا بمعروضاتها . انها لم تكن تستطيع احتمال الضجر والسأم ولهذا كانت ذات نزوات فجائية سريعة وعجيبة . وقد أرادت يوما أن تؤخذ لها صورة فوتوغرافية وهي راقدة في نعش .. ذوق سقيم ؟ نعم ، ولكن المرجع انها فعلت ذلك رغبة في التسلية والدعاية والتأثير في الناس

ورحلت ساره برنار الى لندن مع الفرقة ، وهناك ظفرت بالشهرة العظيمة ، وأسرت قلب ولي العهد ، وبهرت أهالي لندن بشذوذها الذي لا حد له ، ولما وبخها بيران مدير الفرقة على سلوكها الشاذ الذي أصبحت تلوكه الالسن لم تتردد في تقديم استقالتها

وأسعفها القدر ، وتسلمت برقية تدعوها الى رحلة تمثيلية في أنحاء أمريكا ، فلم تتردد لأنه لم يخالجها شك في أنها ستنال نجاحا فريدا من وراء هذه الرحلة على الرغم مما في هذه التجربة من خطر على كل فنانة أوربية

□

وكانت ساره في الواقع تعتمد كثيرا في هذه الرحلة على رجال الدعاية في الفرقة ، ولم يخب أملها، وما أن وصلت الباخرة الى ميناء نيويورك والقت مراسيها حتى لاحظت ساره أثر هذه الدعاية القوية

خرجت مدينة نيويورك في ذلك اليوم لاستقبال الفرقة استقبالا حارا ، واجتمع مئات من مخبري الصحف والمجلات متأهبين لالتقاط الصور ، وأخذ أحاديث . وكان ذلك كله لأن كتيبا ظهر قبل وصول الفرقة عنوانه « غراميات ساره برنار » وفيه قصص عن شخصيات بارزة عديدة استطاعت الوصول الى غرفتها الخاصة

ومن أطرف ما حدث أن اسقف شيكاغو ثار ضد ساره برنار ، والقى خطابا ندد فيه بهذه الفرقة وبالممثلة المستهترة ، ونشر في الصحف مثل هذا التنديد ، فتسلم من رجال الدعاية بالفرقة رسالة هذا نصها :

« سيدي الاسقف

لقد اعتدت عند حضوري الى مدينتكم العظيمة أن أنفق ٤٠٠ دولار في سبيل الدعاية والاعلان ، وبما أنك قد قمت بهذه الدعاية خير قيام فاني أبعث اليك بمائتي دولار لتوزيعها على الفقراء »

واستطاعت ساره منذ الليلة الاولى أن تأسر قلوب الاميريكيين بحسنها الوضاء وفنها العجيب ، ثم عادت الى فرنسا بثروة طيبة

ولقد بعثها هذا النجاح الذي نالته في أمريكا الى القيام برحلات طافت خلالها بجميع الاقطار الاوربية

وفي ايطاليا اشتبكت في مغامرة غرامية عنيفة مع ممثل يوناني جميل الطلعة ، ملتهب النظرات اسمه « داملا » فتزوجته ، غير أن نيران الحب خمدت بعد بضعة أشهر فطلبت من داملا أن يغرب عن أنظارها

ثم تلاحق في مغامراتها الغرامية « جان

شيبان » ، وشرعت فى تدريبه على التمثيل ، ثم أشركته معها فى تمثيل رواية « نانا صاحب » و « غادة الكاميليا » التى مثلتها مائة ليلة متعاقبة وقد بلغت فيها الذروة ، غير أن اخراجها رواية « ماكبث » مع اشراك شيبان معها استنزف كل مالها حتى اضطرت الى بيع بعض ثيابها ومجوهراتها ، فقامت برحلة الى شمال أمريكا وجنوبها ثم عادت الى باريس . وكان حظها يعلو أحيانا ، ويهبط أحيانا أخرى

وفي عام ١٨٩١ رحلت ساره الى استراليا ، وجمعت من هذه الرحلة والرحلات السابقة أموالا مكنتها من شراء مسرح خاص بها ، واستقبلت فيه فنانين غرباء أمثال ارفنج وديوس ، واكتشفت مواهب كثير من الفنانين الشبان واستخدمتهم ، وأحيت كثيرا من التمثيليات الرائعة الكلاسيكية

□

وحين بلغت الخمسين من عمرها ، سقطت على المسرح سقطة أصابت ركبتها بأضرار ، غير ان هذه الحادثة لم تستطع أن تقف حائلا دون بروز مواهبها وحماستها لفنها

ولقد ذاعت شهرة ساره برنار فى فرنسا ذيوعا عظيما ، وبلغت أوج شهرتها فى اليوم الذى أطلقوا عليه اسم «يوم ساره برنار» ، وكان ذلك فى ديسمبر ١٨٩٦ حين أقيمت لها حفلة ضمت ٦٠٠ مدعو فى جراند اوتيل ، وأقلتها مركبة الى مكان الحفل بين صفين من المعجبين بها الذين راحوا يمطرونها بالازاهير والرياحين

ولما حلت سنة ١٩١٤ كانت الممثلة العظيمة تقوم بأدوارها وهى مستندة الى المقاعد أو الى من معها من الممثلين على خشبة المسرح ، لأن اصابة ركبتها كانت قد بلغت حد الايلام العظيم

ثم بترت ساقها ، وكان المظنون أن تكون هذه هى النهاية ، ولكنها ظلت تظهر على المسرح فى أدوار كانت تكتب خصيصا لها بحيث تظل فيها جالسة ولا تضطر الى الوقوف

وفى عام ١٩١٧ أصرت على القيام برحلة الى ميادين القتال فى الحرب العالمية الاولى رغم ما فى هذه الرحلة من المتاعب والمشاق ، وقد ألهبت حماسة الجنود بعبقريتها وفنها الرفيع

وفى عام ١٩٢٣ عملت فيلما ، وأمام عيون الكاميرا القاسية قضت ساره برنار أيامها الاخيرة تخدم الاله الجديد ــ السينما ــ الذى ورث مجدها الذى لا حد له وعبقريتها التى انفردت بها

كانت ساره برنار فنانة رائعة فذة ، ولكنها كانت الى جانب هذا كليوباترا فرنسا بجمالها الخلاب وحسنها الساحر وغرامياتها العنيفة ، وان كانت قد بذت غيرها فى عدد المعجبين والعشاق

كان حبها شؤما على كل من خفق له قلبهـــا ، وماتت مقتولة بعد ان عاشت ودماء الضحايا تهرق من حولها

القاتلة المقتولة

ماري ستيوارت

بقلم الأستاذ حبيب جاماتى

شاء طالع « ماری ستوارت » أن تظل طول حياتها ، منذ الطفولة الى آن قطع رأسها ، فى صراع مع الحب والموت ، فى آن معا ... لقد صاحبتهما ، وصاحباها ، خلال السنوات الاربعين التى عاشتها فى هذا العالم

كان عمرها سبعة أيام فقط ، فى شهر ديسمبر ١٥٤٢ ، يوم مات أبوها جاك الخامس ، تاركا لها عرش اسكوتلانده ومهمة المحافظة على المذهب الكاثوليكي المضطهد .

كان عمره ثلاثين سنة فقط

ولما آل العرش الى الطفلة الرضيعة، وجد ملك انجلترا هنرى الثامن ، خصم أسرة ستوارت ، نفسه أمام يتيمة مسكينة طبعها الشؤم بطابعه

وصف الكاتب الشاعر الفرنسى رونسار بلاد اسكوتلانده فى ذلك العصر ، فقال : « انها بلاد متوحشة يسكنها أقوام على جانب كبير من الخشونة »

ان الاشراف والنبلاء، من بارونات ولوردات ، ليسوا غير طغمة من السلابين النهابين ، يحارب بعضهم بعضا ، ولا تتفق كلمتهم الا اذا قرروا محاربة العرش والجالس عليه

وفى الوقت الذى كانت فيه الحضارة تغزو أوروبا ، فتترعرع فيها الفنون الجميلة ، وتنشأ المصارف ، لم يكن سكان اسكوتلانده يعرفون عملة يتعاملون بها غير المواشى !

كان والد ماری ستوارت يملك عشرة آلاف خروف . ولم يكن عنده خزينة للدولة ، ولا مال ، ولاجيش، ولا سلطة . انه يطلب كل شيء من فرنسا ومن البابا الذى كان يساعده بالمال لكى يواصل الدفاع عن المذهب الكاثوليكى فى بلاده

غير ان ماری ستوارت ، منذ اليوم الذى رأت فيه النور ، أصبحت الخطيبة المرجوة التى يتسابق الى طلب الزواج بها أمراء أوروبا وملوكها

ان هنرى الثامن يريدها زوجة لابنه ادوارد ، ويرسل قوة مسلحة للقبض عليها وجلبها الى لندن . ولكن



جنود الملك لم يجدوها . فقد اختفت ، ولا أحد يعرف أين تختبىء غير سفير فرنسا ، الذى تمكن من ترحيلها الى بلاده، فأقامت فى قصر سان جرمان، مقر ملك فرنسا هنرى الثانى

وهناك رأت ولى عهد فرنسا ـ فرنسوا ـ للمرة الاولى . كان عمرها ستة أعوام . وكان عمره أربعة ! انه هزيل ، شاحب اللون ، يحمل فى دمه لوثة ورثها عن جده فرنسوا الاول . وأصبح ذلك الطفل خطيبا لتلك الطفلة !

ان حاشية ملك فرنسا لا مثيل لها فى أوربا كلها ، من حيث التأنق والبذخ ، والتفنن فى احياء الحفلات ، واقامة المباريات الادبية

أطلقوا عليها اسم «الملكة الصغيرة»، وعنيت الاسرة المالكة بتربيتها وتعليمها

درست مارى اللغات اللاتينية ، والاغريقية، والفرنسية ، والانجليزية، والايطالية ، والاسبانية ! وطالعت كتبا ومؤلفات لا عداد لها

أصبحت الطفلة شابة . وتجلت مع جمالها صفات أخرى ، أهمها الشجاعة والثبات . أما خطيبها ، فان صحته تسير من سىء الى أسوأ مما جعل المسئولين يستعجلون الزواج . فاذا لم ترزق مارى ستوارت ابنا ، فان عرش اسكوتلانده يؤول الى الاسرة المالكة بفرنسا !

وتدخلت الاقدار فى الامر

حدث فى سنة ١٥٥٩ ان اشترك الملك هنرى الثانى فى مباراة بالرمح مع نبلاء المملكة ، فأصيب فى عينه، وكانت الاصابة قاتلة

مات هنرى الثانى وأصبح زوج مارى ستوارت ملكا باسم فرنسوا الثانى ! وكانت الفتاة فى السابعة عشرة عندما حملت لقب ملكة فرنسا واسكوتلانده !

غامرت الى أقصى حدود المغامرة ، وقامرت بكل شىء ... وهبت العاصفة . لقد انتهى كل شىء ، وفقدت الملكة كل شىء . . .

ملكة فرنسا بزواجها من فرنسوا ، وملكة اسكوتلانده التى ورثت عرشها عن أبيها . وكانت تحلم أيضا فى اعتلاء عرش انجلترا بسبب المنازعات القائمة حوله بين أفراد أسرتى تودور وستوارت

وتدخلت الاقدار مرة أخرى . وما أكثر تدخلها فى حياة مارى ستوارت

ما مرت سنة على الزواج ، حتى اشتد المرض على الملك فمات فى ٢ ديسمبر سنة ١٥٦٠ بعد عذاب أليم . وأصبحت مارى ستوارت أرملة ، ولم تعد ملكة الا بالنسبة الى اسكوتلانده . أما فى فرنسا فقد تولى الملك أخو الملك عملا بقانون الوراثة

كان بوسع مارى ستوارت أن تقيم فى فرنسا طول حياتها اذا أرادت . ولكنها أبت الا أن تعود الى بلادها ،



ماري ستيوارت — الامير دارنلي

اذ كيف يمكن أن ترضى بأن تصبح فى فرنسا المرأة الثانية بعد أن كانت الاولى

واستأنف الملوك والامراء فى أوروبا عرض الزواج عليها . لكنها آثرت التريث والتفكير

فى صيف سنة ١٥٦١ ، عادت الى اسكوتلانده ، لتلاقى فيها المتاعب: متاعب سياسيةودينية ، تثيرها ابنة عمها اليزابيث الاولى ملكة انجلترا ، وعملاؤها فى اسكوتلانده . وعلى رأسهم « جون فوكس » رئيس الكنيسة البروتستانتية التى كانت فى خصام مع الكنيسة الكاثوليكية

وقررت الملكة أن تقاوم وتكافح رفضت عروضا أخرى بالزواج تلقتها من الأسر المالكة باسبانيا والدانمرك والسويد وغيرها . ولكن الحب دب الى قلبها فجاة يوم بلغت الثالثة والعشرين من العمر

والحبيب هو امير من اسرة ستوارت ، يدعى « دارنلى » عمره تسع عشرة سنة ، على جانب كبير من الجمال والقوة والاناقة . انه لايقدم لها عرشا . ولكنها تعتبر ان الحب أثمن من العرش

عهدت الى امين سرها الايطالى ، دافيد ريتزيو ، بان يأتيها باذن الزواج من البابا ، ولكنها لم تنتظر عودته ، فعقدت الزواج سرا ريثما تصل بركة الكنيسة من روما

وبلغ الغضب اشده فى صدر

قريبتهـــا اليزابيث الانجليزية ، وخصمها جون فوكس

وانفقت اليزابيث اموالا كثـيرة لاثارة النبلاء فى اسكوتلانده علـى ملـكتهم . فثـاروا . لكن مارى ستوارت خلعت عنها ثوب النساء ، وارتدت ثوب القتال ، ومشت على راس اتباعها ، وهزمت خصومهـا وحملهـا الشعب على الاعنـاق ، فالشـعب يحب الجمـال المقرون بالشجاعة

اما اليزابيث الانجليزية ، فكانت تحارب مارى ستوارت لاسـباب عديدة ، اهمها انهـا تؤيد المذهب البروتسـتانتى ضـد المذهب الكاثوليكى ، وانهـا تطمع فى ضم اسكوتلانده الى انجلترا ..

كتب النصر لمارى فى اول معركة اثارتها ضـدها اليزابيث ، ولـكن قلبها ظل عرضة للتقلبات العاطفية العنيفة ...

الرجل الذى احبتـه فجـاة ، وتزوجتـه ، دارنلى ، هاهى الآن تكرهه ، فجأة كمـا احبته . فقد كان كثيرالطلبات ، متكبرا ، شديد الادعاء ، لا ارادة له ...

لم تعد تحبه ... وشعرت بأن الرجل الذى يميل اليـه قلبها هو أمين سرها « دافيد ريتزيو ! »

وادرك دارنلى هـذا الانقلاب فى عاطفـة زوجته نحـوه . وقرر ان ينتقم ، فجمع اصـدقاءه ، وهاجم غريمـه وهو فى خلوة مع الملـكة ، وسقط المسكين مضرجا بدمه ، وقد قطعت نصال السيوف جسمه اربا .

والقيت الجثة الممزقة من النافذة . واحتجز دارنلى ورفاقه الملكة اسيرة فى حجرتها

غير انها عرفت كيف تتخلص من المازق

اقنعت زوجها بانها حامل ، وبأن موت الجنين فى احشائها يحرمه من ان يرى ابنه فى المستقبل جالسـا على العرش ...

واقتنع الرجل ، وساعد زوجته على الهرب من الاسر ، فخان اصدقاءه بعد ان ارتكبوا جريمتهم من اجله

ولكن ، هل هدأت العاصفة التى اجتاحت قلب المرأة المغامرة ؟

لا . مات ريتزيو ، فوجدت غيره .

لاتزال تكره زوجها ، بل ان كرهها تضاعف . اما الحب ، فقد حرك قلبها مرة اخـرى ، وكان العشيق المختار فى هـذه المرة من جنـود الحرس : « بوتويل » الذى لايعرف فى الحياة رادعا والقوى الذى يعتقد أن كل شىء يتم بالعنف ، والملحـد القاسى الطموح ...

واغـدقت عليه مارى النعم بلا

حساب ...

أعطته الاموال ، والاراضى ، والقصور ، ووضعت بين يديه السلطة ، وسلمته نفسها !

ووجد دارنلى نفسه امام غريم آخر ، حل محل الغريم الذى تخلص منه بالقتل . لكن بوتويل غير ريتزيو ! انه رجل كفاح وعناد وقتال . فقد أقام فى اسكوتلاندة نظاما صارما وحكما رهيبا . وشعر خصوم مارى ستورات أن يدا حديدية حطت عليهم بأثقالها

ان هذا الغرام بين الملكة مارى ستورات وذلك الجلف الذى وقع عليه اختيارها ، من أغرب الملاقات الغرامية فى التاريخ ...

احبته حبا جنونيا . وارادت فى النهاية أن تتزوجه وتجلسه على العرش بجانبها ، ولهذا ، بدأت تفكر فى التخلص من الزوج الشرعى ، دارنلى !

شعر الرجل بالخطر يهدده ، فهرب ولجأ الى قصر أبيه ، دوق لينوكس ، حيث أصيب بالجدرى

عمدت مارى الى الخداع . فذهبت اليه ، واقنعته بوجوب العودة معها الى العاصمة ادنبرة . فانقاد لها مرة أخرى ... وذات مساء ، بينما كان دارنلى راقدا فى غرفته ، اذا بالدار التى خصصتها له الملكة تهتز وتنهار ! فقد نسفت ، وكل الدلائل تدل على ان الملكة هى التى ارادت ذلك .

وفى اليوم التالى ، بكت مارى ستورات ، وعلم الشعب أن «الملك هنرى دارنلى» قد مات فى حادثة انفجار ، وأن البحث يجرى لمعرفة الجناة

ولم يسفر البحث عن معرفتهم ، طبعا ، لان الجناة هم انفسهم الذين كانوا يجرون البحث . ولم يشك احد فى ان الملكة قتلت زوجها لتتزوج عشيقها بوتويل !

وثارت الخواطر ، وتظاهرت الملكة بانها ستحاكم بوتويل الذى يتهمه الشعب بانه هو الذى تولى نسف الدار التى كان دارنلى مقيما فيها ،

ولكن المحاكمة كانت مهزلة ...

وذات يوم ، خطف بوتويل الملكة وذهب بها الى قصر من القصور التى سبق أن اهدتها اليه : قصر دونبار .

وهناك أعلنت الملكة التى افقدها غرامها الاثيم عقلها ، انها ستتزوج الرجل الذى يعاونها فى حكم المملكة ، بوتويل !

وانفجرت مراجل الغضب فى صدور الشعب ، وشعرت الملكة بان

الثورة على الابواب ، لكنها لم تعد الى رشدها ، بل سارعت فى عقد زواجها الثالث فى الساعة الرابعة صباحا ، وأقسمت لبوتويل « معك دائما ، فاما ان نعيش معا ، واما ان نموت معا ! »

غامرت الى اقصى حدود المغامرة. وقامرت بكل شىء ... وهبت العاصفة ... زحف الثوار الى مقر الملكة وزوجها الجديد ، فمشت مارى الى القتال مرة اخرى ، ولكن الهزيمة كانت نصيبها

لقد انتهى كل شىء ، وفقدت الملكة كل شىء

هرب بوتويل ... وارغم الشعب ملكته على التنازل عن السلطة والمناداة بابنها من دارنلى ملكا على اسكوتلاندة - ولكنه ملك لن ينتم أبدا بملكه

حاولت ان تفلت من الاسر الذى وضعها فيه خصومها ، وان تستعيد سلطتها التى اغتصبها النبلاء ، فوقعت معركة أخرى — او اخيرة على الاصح — بينها وبينهم . وهزمت فى هذه المرة ايضا

وظنت مارى ستوارت ان فى وسعها الاستعانة باليزابيث ملكة انجلترا ، بعد ان تعقد معها الصلح ، فذهبت اليها ، وسلمت نفسها الى غريمتها ! وكان ذلك بدء النهاية !

فقد عاشت عند ابنة عمها فى أسر دائم ، تنتقل من سجن الى سجن . وحاولت ان تهرب اكثر من مرة ، وان تتآمر ، وان تسترجع العرش ، ولكنها فشلت مرة بعد مرة

ووقعت لها حوادث غرامية وهى فى الاسر .

ان ذلك القلب الثائر لم تهمد نيرانه ابدا !..

أحبت مارى ستوارت واحدا من حراسها ، وواحدا من خدمها ، وواحدا من قواد الجيش الانجليزى ، واكثر من واحد من رجال حاشية اليزابيث ...

ولم تكف عن التآمر ...

وقادها التآمر الى الاشتراك فى ثورة على اليزابيث ، فقضت ملكة الانجليز البروتستانتية باعدام ملكة اسكوتلاندة الكاثوليكية ...

واعدمت مارى ستوارت بان قطع الجلاد راسها بالفاس !

فاتنات خلدهن الفن

بقلم الاستاذ أبى صالح الالفى

سيظل الجمال الانسانى هو المصدر الذى يستوحى منه الفنان اعظم اعماله خلودا على وجه الزمن ....

استطاع رجال الفن على مر العصور ان يسجلوا نماذج متعددة للفتنة والجمال ، بعضها لفاتنات معروفات ، كانت لهن ادوار بارزة فى عصورهن ، وبعضها لفاتنات لم يسجل لهن التاريخ شيئا مذكورا

والفنان المصرى القديم من اكثر الفنانين استجابة للجمال واحساسا به وقدرة على تسجيل اثاره فى نفسه . ويعتبر تمثال الاميرة « نفرت » من اجمل نماذج الجمال واروعها . ففى عصر يوم من ايام صيف سنة ١٨٧١ كان عمال مصلحة الآثار يحفرون فى منطقة

عروس توت عنخ آمون ، الملكة عنخ س ان با آتون سنة ١٣٥٠ ق ٠ م

ميدوم ، وفجاة القوا ما بايديهم من ادوات الحفر واخذوا يصيحون صيحات الدهش والاعجاب فقد رأوا داخل حجرة تمثالا لسيدة كأنما قد بعثت حية من جديد ، مكتملة الصحة والجمال ، يشع من عيونها الفاتنة بريق قوى ساحر ، وترتدى رداء رقيقا يكشف عن محاسنها . ولاشك ان جمال هذه الاميرة كان يسطع فى سماء مدينة منف منذ قرابة خمسة آلاف سنة ، مؤثرا فى حياة زوجها الامير رع حتب قائد جيوش والده الملك سنفرو

■

ولعل اكثر فاتنات التاريخ القديم شهرة هى الملكة نفرتيتى . ولعل جانبا كبيرا من شهرتها يرجع الى تمثال صغير ملون صنعه لها فنان مصرى كان يحبها حبا لا امل فيه ، فتحول هذا الحب العذرى الى طاقة جبارة من طاقات الفن . وقد عثر الباحثون فى تل العمارنة على اكثر من تمثال حجرى لهذه الملكة وكلها بالغة الروعة والجمال وقد سجل الفنان المصري ايضا تفاصيل حياة فاتنتين من اشهر



تمثال الاميرة نفرت
زوجة الامير رع حتب

فاتنات التاريخ المصرى القديم هما حتشبسوت وكليوباترة

■

وفى بلاد العراق سجل التاريخ اسم الملكة « شوباز » من العصر السومرى منذ نحو خمسة آلاف سنة . وكانت نموذجا من نماذج الفتنة فى عصرها ، تتميز بصفاء البشرة وجمال العيون ، تتزين باقراط كبيرة مستديرة - كعودة اهل هذا العصر - وتضع على راسها تاجا من الذهب يمثل اوراق اشجار متراصة ، ومحلى بالاحجار الكريمة

■

ولم يغفل الفنانون المسلمون فى العصور الوسطى عن تصوير جمال المرأة وفتنتها فابدعوا فى ذلك ايما ابداع ، على طريقتهم وباسلوبهم الزخرفى البسيط الذى لايهتم الا بابراز المحاسن دون اى اعتبار آخر . فنرى الفنان المسلم يهتم بتقاطيع الوجه واستدارة اعضاء الجسم ورقة اليدين واناقة الملابس وفخامتها - ولا يهتم بتجسيم الصورة على الطريقة الاوربية - فتبدو صورهم كما لو كانت صورا اسطورية

غادة تشم وردة للمصور التركى لفنى محفوظة بالمتحف تربسكابى





ليدى هاملتون ... صورة رائعة من عمل الفنان رومنى



صورة دونا ايزابيل دى بورسيل المحفوظة بمتحف لندن ، من أحسن اعمال جويا

ومن الصور التى ابدعها الفنان المسلم لفاتنات معروفات صورة « فتنة » صاحبة بهرام جور ملك ايران ، وصورة « زليخا » صاحبة يوسف الصديق

على ان الاوضاع الاجتماعية فى أوربا ، منذ عصر النهضة أتاحت للمرأة اعظم الفرص لتكون ذات اثر موجه فى المجتمع ... ولم تكن القيم الاخلاقية — دائما — ذات اعتبار ملحوظ.

وقد كان من عادة الملوك والامراء ان يطلبوا من كبار المصورين ان يرسموا صورة الفتاة المرشحة للزواج — عن الطبيعة — فاذا راقت هذه الصورة للامير او الملك تمت



صورة رسمها الفنان آنجر لمدام موانيسيه محفوظة بالمتحف الاهلى بواشنجطن

اجراءات الخطبة وتم الزواج

ومن امثلة هذه اللوحات الصورة التى رسمها الفنان المشهور « هولبين » للاميرة « كرستينا » الدانيماركية بناء على طلب هنرى الثامن ملك انجلترا . وقد استطاع هولبين ان يصورها صورة تقرأ فيها البساطة والرشاقة والوقار

ومن الامور التى تستحق التسجيل أن الصور الشخصية التى كان يرسمها الفنانون كثيرا ما كانت تظهر الفتيات المخطوبات اكثر جمالا من حقيقتهن كما حدث عندما كلف كرمويل فنانا برسم صورة فتاة اسمها «آن» من دوقية كليف ، فقد اعجب هنرى الثامن بالصورة ولكنه فجع عندما رأى الاصل

فغضب على وزيره كرمويل وسجنه فى برج لندن !

▱

وقد تعرفت الليدى هاملتون ، التى نشأت من اصل وضيع ووصلت الى أعلى درجات المجد على الفنان المشهور « رومنى » الذى كان تواقا للجمال محبا للحسن ، وبالرغم من أن هذا الفنان كان مخلصا لزوجته مارى ، الا انه احب هذه الفاتنة التى كانت تزوره فى مرسمه زيارات متلاحقة مكنته من ان يرسم لها اكثر من ٢٤ لوحة غير عدد لايحصى من الرسوم السريعة !

وقد كان لهذا الفنان الفضل فى تسجيل هذا الجمال الصارخ الذى وجه الحياة السياسية فى اوربا حقبة من الزمن

وكانت حياة الصالونات فى أوربا فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر مظهرا من مظاهر ذلك العصر . ومن اشهر الفاتنات اصحاب الصالونات « مدام ريكامييه » التى كانت تعتبر نموذجا للجمال والذكاء والاناقة ، وقد سجل صورتها الفنان « آنجر » صاحب المدرسة الكلاسيكية الجديدة التى ظهرت فى أول القرن التاسع عشر ، فرسم هذه الفاتنة متمددة على اريكة وهى ترتدى الملابس الرومانية . والصورة من حيث الاداء والتكوين من احسن ما اتجه هذا الفنان . وتعتبر من احسن التحف المحفوظة فى متحف اللوفر على ان « مدام ريكامييه » كانت تعجب بصورة أخرى رسمها لها تلميذ من تلاميذ دافيد هو الفنان « جرار » ، ولعلها اعجبت بها لانها اظهرتها اكثر شبابا من الصورة التى رسمها دافيد

ومن الفنانين الذين رسموا كثيرا من الصور الشخصية الفنان الاسبانى « جويا »

وكان جويا يحافظ على الملامح فى الصور الشخصية التى يرسمها ولكنه كان يتعدى ذلك الى ابراز مايعتمل فى النفس البشرية من اطماع او شهوات . ومن احسن اعماله صورة ايزابيل دى بورسيل المحفوظة بمتحف لندن ، حيث نرى فيها فتاة ناضجة متفجرة الانوثة

وسيظل الجمال الانسانى هو المصدر الاول الذى يستوحى منه الفنان اعظم اعمال الفن واكثرها خلودا على وجه الزمن

قصة امرأة ارادت أن تصبح عشيقة للملك ، فكان لها ما ارادت،وسيطرت على فرنساوملكها وجعلت قصرها صالونا للادب والشعر ...

الفاتنة الأديبة

مدام دى بومبادور

قال رئيس الجمهورية وهو يشير الى الحديقة وقد بدت أشجارها ورياحينها وزهورها من خلال الباب الزجاجي المؤدى اليها :

ـ هذه الحديقة مفعمة بالذكريات .. ليس فقط منذ قيام النظام الجمهورى ، بل من قبل ذلك بكثير ، من عهد الملكية التى أصبحت صفحة مطوية من صفحات التاريخ

وبعد لحظة صمت ، استطرد قائلا :

ـ أمام هذا الباب ضريح جميل فسألنا مستفهمين ، وجاءنا الرد: ضريح كلب .. هنا دفنت خليلة الملك لويس الخامس عشر ، مدام دى بومبادور ،كلبها المحبوب!

وأشار الرئيس ، وأشار رجال حاشيته ، الى ذكريات أخرى فى القصر وحديقته ، ذكريات بعضها محزن ، وبعضها مفرح

كان ذلك فى خلال زيارة قامت بها بعثة صحفية مصرية لفرنسا ، وكنت بين أعضائها .وقد استقبلنا رئيس الجمهورية الفرنسية وقتئذ ، فنسان أوريول ، فى مقره الرسمى بقصر الاليزيه ، بحى سانت أونوريه بالعاصمة الفرنسية

القصر تحفة هندسية رائعة . وحديقته الكبيرة من أجمل الحدائق

في بلد عرف باهتمامه وعنايته بالاشجار والازهار

ويرجع تاريخ انشاء هذا القصر الى أوائل القرن الثامن عشر ... وفيه أقام ملوك فرنسا ، ونابليون الاول ، ونابليون الثالث ، ورؤساء الجمهورية ...

ومن أشهر الذين سكنوه المركيزة دي بومبادور ، عشيقة لويس الخامس عشر ، وقد أهداه الملك اليها في منتصف القرن الثامن عشر

وطلبت من مرافق الرئيس الفرنسي السماح لي بزيارة القصر وحديقته في وقت آخر ، فأجابني الى رغبتي ، وتمت الزيارة ، بل تم الطواف في اليوم التالي ...

ذهبت أول ما ذهبت الى ضريح الكلب الذي دللته الخليلة المحبوبة بقدر ما دللها عشيقها المتوج ، ثم لما حرمت من حنانه أو حرم من حنانها ، دفنته أمام باب القاعة الكبرى ، في الحديقة ، لتظل رفاته تحت أنظارها ، ولتظل ذكراه حية في نفسها !

والقصر مليء بالذكريات المتعلقة بالحسناء التي حكمت فرنسا من خلال الملك ، أو حكم الملك فرنسا بواسطتها



عاشت ثلاثة وأربعين سنة غير كاملة ، من سنة ١٧٢١ الى سنة ١٧٦٤

قال رفيقي في الزيارة : « كان كلبها محظوظا في حياته بقدر ما كانت هي محظوظة في حياتها ! »

تحققت النبوءة معها !

لويس الخامس عشر

قالت لها العرافة ، وهي في التاسعة من عمرها فقط : « أمامك طريق مفروش بالورود ، السعد يضحك لك من الآن ، وسوف ترتفعين جدا ، سوف تصبحين أكثر من ملكة ، بدون أن تصبحي ملكة ! وسوف يخضع لك العرش بدون أن تجلسي على العرش ! »

نقلت الطفلة « جان انطوانيت بواسون » الى أمها ما قالته لها العرافة ، وظلت تردده بينها وبين نفسها ، وعلى مسامع الناس كلما سنحت الفرص ، حتى أصبح قول العرافة عقيدة عند المرأة وابنتها

فكبرت أنطوانيت وهذا الامل يختلج في صدرها : « ملكة أو أكثر من ملكة ! »

انها من أسرة متوسطة الحال ولكن أمها تطمع في أن تجعل من ابنتها امرأة عظيمة ، خصوصا وقد تنبأت لها العرافة بذلك

عنيت بتعليمها وتثقيفها وتهذيبها .

ودربتها على القاء القصائدالشعرية، والقطع التمثيلية ، وعلى الرقص والغناء

▭

وأصبحت الطفلة الذكية فتاة بارعة الجمال ، غنية بما أغدقته عليها الطبيعة السخية من نعم : قامة هيفاء ، وجه نير ، عينان زرقاوان يتقدان ذكاء ، أنف صغير متناسب مع الوجه النير ، سرعة خاطر لا تجارى ، علم واسع ، ذوق سليم، وجاذبية لا تقاوم !

ماذا ينقص المرأة اذا توافر لها كل ذلك ؟

وأى شاب لا يتمنى اتخاذها زوجة له ؟

وزوجوها وهى فى العشرين من العمر ، وكان زوجها الشاب النبيل شارل لينورمان دتيول

وتهامس الناس من حولها قائلين ان أمها اختارت لها هذا الزوج لانه يمت بالقرابة الى عشيقها ـ عشيق الأم ـ وهو أيضا من أسرة لينورمان، لانه والدها الحقيقى !

لا شىء يثبت هذا ، ولا شىء من ناحية أخرى ينفيه

اختارت لها أمها زوجا من أسرة لينورمان ، ولكنها ظلت تذكرها بأن العرافة تنبأت لها بشىء آخر

لابد اذن من الوصول الى الملك ، اذا كانت الحسناء تريد أن تصبح « أكثر من ملكة ! »

ساعدت انطوانيت وأمها القدر لكى يحقق النبوءة !

كان الملك يكثر من الخروج الى الصيد فى غابة سينار ، بالقرب من باريس . وفى ذات يوم، بينما كانت عربة الملك تخترق الغابة . اعترضتها عربة أخرى ، أصغر منها ، زرقاء اللون ، واضطرتها الى الوقوف ، ورأى الملك . من نافذة عربته، وجها ملائكيا يبتسم له من نافذة العربة الاخرى !

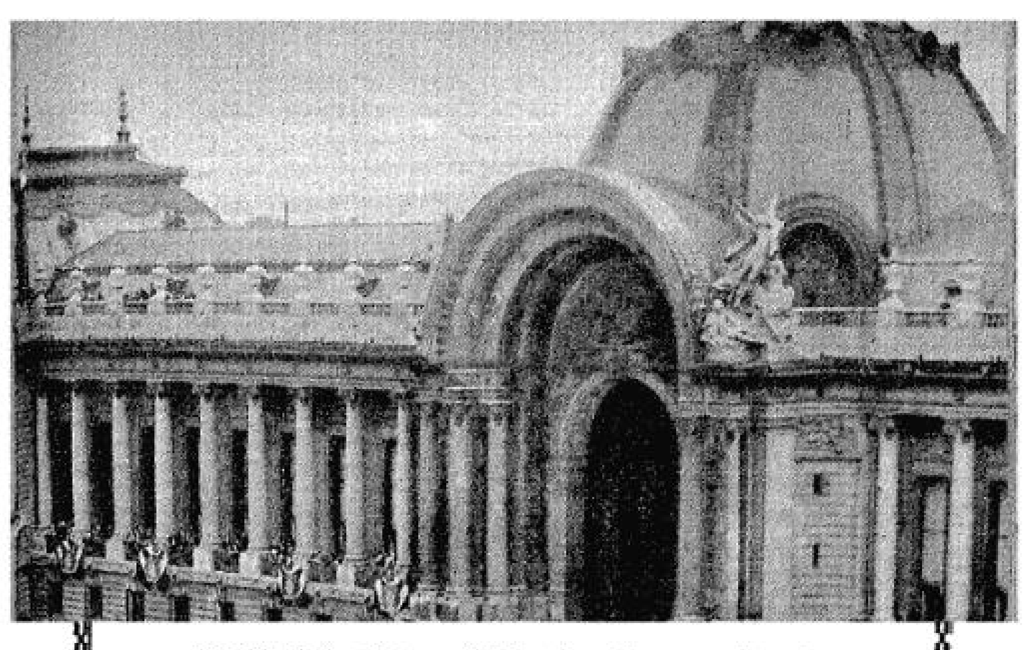
منذ تلك اللحظة ، شعر الملك لويس الخامس عشر بأن عشيقته « دوقة شاتورو » التى كانت فى ذلك الوقت أقرب محظياته اليه ، لم تعد مستحوذة على قلبه ، وان فى هذا القلب مكانا لغيرها !

ما مرت أيام على ذلك اللقاء العابر، حتى كانت الحسناء انطوانيت تتحرش بالملك فى حفلة ساهرة بدار البلدية بباريس . وأراد أن يستعجل الوقت، وأن يستولى على قلب الفتاة بسرعة، فهمس فى أذنها كلمات تظاهرت المرأة بأنها جرحت احساسها ، فابتعدت . وأعجب هذا الطهر المصطنع الملك العاشق الفاسق . وتوالت مشاهد الرواية ، وأحسنت انطوانيت التمثيل ، وأمها من خلفها تقوم بمهمة الملقن ، حتى انتهى كل شىء كما أرادت المرأتان أن ينتهى

ومما ساعد على هذه النهاية ، موت عشيقة الملك دوقة شاتورو

▭

خلا الجو لانطوانيت . ولكنها لاتريد أن تكون ، بالقرب من الملك، واحدة بين عشرات المحظيات والخليلات : تريد أن تكون الاولى ، أو لا تكون شيئا . تريد أن تكون فوق الملكة ، لانها تعرف أن المرأة التى تطغى على قلب الملك هى التى



قصر الاليزيه ... ان حجرات هذا القصر وحديقته مفعمة بالذكريات ليس فقط منذ قيام النظام الجمهورى فى فرنسا بل من قبل ذلك بكثير

تتحكم فيه وتسير ارادته

انهـا لا تتردد أمام شيء لبلوغ غايتها . كل الوسائل مباحة فى نظرها . وهكذا ، فى سنة ١٧٤٥ ، وهى فى الرابعـة والعشرين من العمر ، أصبحت جان انطوانيت بواسون ، زوجة لينورمان ديتيول ، عشيقة الملك الرسمية ، أمام الناس أجمعين ، الذين قدمهـا الملك اليهم بهذه الصفة

فقد كان الملك يقدم عشيقته الى رجال القصر ، ليكونوا على بينة من أمرهم ، وليعلموا ان ملكة غيرمتوجة أصبح مسموحا لها ، فى المستقبل، أن تصدر اليهم أوامرها ، وان هذه الاوامر، بخلاف أوامر الملكة المتوجة، غير قابلة للنقض !

ومرت شـهور ، واذا بلويس الخامس عشر يمنح العشيقة المختارة لقب « مركيزة دى بومبادور »

كان الزوج ، طبعا ، آخر من عرف بما يحدث حوله . ولما عرف ، أراد أن يحتـج ، فابعد عن باريس ، وحصلت الزوجة على قرار بالانفصال عنه !

وبدأ حكم مدام دى بومبادور...

يقول الذين عرفوها وكتبوا عنها انها كانت فاترة المشاعر باردة فى حبها ، بخلاف ما كانت تدل عليـه مظاهرها

لكن مطامعها لم يكن لها حد . وظمأها للمال والسلطة لم يكن من السهل اطفاؤه . ولهذا ، فقد اندفعت مدام دى بومبادور فى الطريق الذى خطته لنفسها ، غير حاسبة لشىء ولا لأحد حسابا

كان عليها أن تحارب الدسائس وتحبطها ، اذ أن الحساد حولها كانوا كثيرين ، من الرجال ومن النساء على السواء . وتغلبت عليهم جميعا ، الواحد بعد الآخر ، والواحدة بعد الاخرى

▭

وهذه المرأة المتعطشة الى المجد والشهرة والسلطة ، تميل أيضا الى الادب وتضعف أمام الادباء وكان أول ما فعلته فى قصر الاليزيه ، الذى أهداه اليها الملك ليكون مقرا لها فى قلب باريس ، أن انشأت فيه دائرة للتمثيل والموسيقى والرقص ، وفتحت أبوابه للكتاب وعلى الخصوص للشعراء ، وأغدقت عليهم المال والنعم بلا حساب

كانت تشرف بنفسها على اقامة حفلات أدبية وفنية فى قاعة المسرح ، بالقصر المنيف . وكانت تلك الحفلات آيات فى الذوق وحسن التنسيق وتمام الاعداد

وبجانب الادب والشعر والتمثيل والموسيقى ، جعلت مدام دى بومبادور تتدخل ، شيئا فشيئا ، فى شؤون الدولة السياسية ، وفى تنظيم علاقاتها بالدول الاخرى

وكان الملك يصغى الى نصائحها ويعمل بها

كان عدوا للنمسا فأصبح بارشاد عشيقته صديقا لها . وكان صديقا لبروسيا فأصبح بارشادها أيضا عدوا لها

وبفضل مدام دى بومبادور ، تم التقرب من امبراطورة النمسا مارى لويز . وتمت فيما بعد خطبة ولى عهد فرنسا ، لويس ، للاميرة النمساوية مارى انطوانيت

▭

دام حكمها تسعة عشر عاما كاملة !

حاول أعداؤها أن يقصوها عن الملك ففشلوا . ولما أدركت مدام دى بومبادور انها بدأت تفقد حسنها وسحرها ، وان الملك بدأ يبحث عن السلوى بين أحضان غيرها من النساء ، لم تغضب ، ولم تيأس ، ولم تحاول المقاومة . بل سايرت الملك ، وغضت النظر عن علاقاته مع الشابات من نساء القصر ونساء طبقة الاشراف ، الاشراف باللقب لا بالخلق !

سهلت للملك كل طريق أراد أن يسلكه ، على شرط أن لا يكون فى ذلك انتقاص لسلطانها ، وقوتها ، وتحكمها فى شؤون الدولة : فهذا وحده كان يهمها ، وهذا وحده ما سعت اليه منذ البدء ، يوم أطلت من نافذة عربتها لتبتسم للملك

تحملت كل شىء فى سبيل الاحتفاظ بالسلطة . واحتفظت بها الى آخر يوم من أيامها . وماتت فى ١٥ أبريل ١٧٦٤ ، بعد أن عجز الاطباء عن شفائها من آلامها .. وكانت فى الثالثة والاربعين من العمر

بلقيس
المرأة التى بهرها سليمان
وخلد قصتها القرآن

بقلم الدكتورة بنت الشاطىء

وقف التاريخ أمامها حائرا مبهورا: لقد ظل آمادا طويلة يتجاهل وجودها ويحسبها من مبتدعات السمار وخيالات القصاص ، لكن الكتب الدينية المنزلة جاءت فاعترفت بها اعترافا صريحا جهيرا ، لم يعد من السهل معه أن يهدر التاريخ وجودها وماذا يجدى الاهدار وقد أضفى عليها ذلك الاعتراف السماوى حرمة دينية ، فصار من العسير انتزاع الايمان بها من قلوب الملايين الذين آمنوا بما أنزل على موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام !

مرت العصور وتتابعت الاجيال ، وقصة «بلقيس» ما تزال حديثا يروى وقصة تستعاد، وصورتها ماتزال تتراءى من أعماق ذلك الماضى السحيق الموغل فى القدم ، ساطعة البهاء نابضة بالحياة ، قد أعيا الزمن ان يطمس معالم فتنتها ، او يحجب شيئا من روائها وسناها ، او ينحى عنها تلك الظلال الاسطورية التى حفت بها فزادتها سحرا على سحر

ثم جاءت الحفريات فأثبتت وجود كثير من معالم الدنيا التى كانت مسرحا لتلك القصة التى فاقت الأساطير

تبدأ القصة فى القرآن ، حين ورث « سليمان » الملك والنبوة والحكمة عن « داود » عليهما السلام ، ثم حباه الله بفضل منه ، فعلمه منطق الطير وسخر له الجن . وحدث أن افتقد « سليمان » طائره الهدهد ، فتوعده بعذاب شديد ان لم يقم له عذر مبين فى هذا الغياب . وجاء الهدهد ، وعلم سليمان بأمر ملكة سبأ وعرشها العظيم ، وسمع أنها

وقومها يسجدون للشمس من دون الله،لا اله الا هو رب العرش العظيم. فما كان من « سليمان » الا أن كتب اليها كتابا ، طار به الهدهد الى سبأ، وألقاه الى الملكة التى تلته فى عناية، ثم قالت لأهل مشورتها : « يا أيها الملأ انى ألقى الى كتاب كريم . انه من سليمان،وانه : بسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلوا على وائتونى مسلمين »

ثم سألتهم الفتيا والرأى قائلة :

« يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى ، ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون . قالوا : نحن أولو قوة وأولو بأس شديد . والامر اليك فانظرى ماذا تأمرين . قالت : ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة . وكذلك يفعلون . وانى مرسلة اليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون. فلما جاء سليمان ، قال : أتمدوننى بمال ، فما آتانى الله خير مما آتاكم ، بل أنتم بهديتكم تفرحون . ارجع اليهم ، فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون »

وتمضى القصة القرآنية ، فتروى لنا كيف وفدت ملكة سبأ على سليمان تبغى المسالمة ، فما راعها الا أن رأت عرشها هناك ، فقيل لها : « أهكذا عرشك ؟ قالت : كأنه هو ! »

وقاد سليمان ضيفته الى صرح ممرد لم يسبق لها أن رأت مثله ، « فلما رأته حسبته لجة ، وكشفت عن ساقيها ، قال : انه صرح ممرد من قوارير »

اذ ذاك شعرت الملكة بضآلة سلطانها وتفاهة ملكها ، أمام الذى شهدت من آيات ملك سليمان ، وجبروت سلطانه ، ومعجزات نبوته فلم تتردد بعد ذلك فى الايمان برب سليمان ، وقالت فى خشوع : «رب انى ظلمت نفسى ، وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين »

▭

هذا هو جوهر القصة كما وردت فى القرآن الكريم ، مكتملة العناصر، متسقة المواقف ، مترابطة المشاهد، لكن دون اهتمام بالجزئيات أو عناية بالتفصيلات ، فما كان يعنى القرآن منها – وهو كتاب هداية ودين – الا موضع العبرة ومضرب المثل وعنصر العظة والهداية : ملكة ذات جمال وسلطان ورأى ، تعبد هى وقومها الشمس من دون الله ، فيأبى سليمان النبى الا أن يردها عن هذا الضلال، ويبعث اليها على جناح طير ، برسالة موجزة ما تكاد الملكة تقرأ ما فيها حتى تدرك بفطنتها ما وراء هذه الكلمات القصار من جد وحزم وتصميم ، وترى الامر أخطر من أن تبت فيه وحدها أو تستقل فيه برأى قاطع ، فتجمع مستشاريها وتسألهم أن يفتوها ، فيظهرون اعتدادا بقوتهم وبأسهم الشديد ، معلنين بذلك عن استعدادهم لمواجهة هذا الخطر ، تاركين للملكة بعد هذا ، الكلمة الاخيرة ، فلتأمر بما شاءت ، فهم جندها الاقوياء ورعاياها المخلصون الأمناء . لكنها تشفق على

بلدها وقومها من التعرض للغزو ، والملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، ويبدو لها أن تتأنى ريثما تختبر شخصية سليمان ، وترى ان كان فيه موضع ضعف تستطيع أن تنفذ منه اليه ، وهدتها أنوثتها الى وسيلة لبقة للاختبار فبعثت اليه بهدية ، لترى كيف يكون موقفه أمام سحر المادة وحيلة حواء ، ثم لما عاد اليها رسلها وحدثوها عن زهد سليمان في المال وتصميمه على الحرب في سبيل رسالته ، سعت اليه الملكة في كامل زينتها وأبهة ملكها ، لعل المسالمة وتبقى المفاوضة وهنالك رأت من آيات « سليمان » المعجزة ما جعلها ترجع عما كانت فيه من ضلال ، وتعلن اسلامها لله رب العالمين

ولم يعن القرآن الكريم بما وراء هذه العبرة من تفصيلات جزئية ، لا تتصل بجوهر القصة ، ولا هي بحيث تجدي في الهداية والاعتبار ، فسواء لديه أن تكون ملكة سبأ هذه اسمها بلقيس أو غير بلقيس ، وأن يكون أبوها شراحيل أو غير شراحيل ، وأن تحدث القصة في وقت معين أو سواه ، وأن يكون عرش الملكة وصفه كذا أو كيت ، وأن يكون عدد جنودها عشرة آلاف أو عشرين ، وأن تكون هديتها الى سليمان من كنوز المال أو بدائع التحف أو نفيس الفخار أو ناهدات الجواري أو . . . أو . . . فلا شيء من هذا كله يعتبر جوهريا في القصة ، أو يعني القرآن الكريم من حيث هو كتاب هداية ودين

□

لكن الناس بطبيعتهم ذوو فضول ،

سعت بلقيس الى سليمان في كامل زينتها وأبهة ملكها لعل المسا

وقد تلا المسلمون قصة سليمان وملكة سبأ في كتابهم الديني المعجز، فشاقهم أن يعرفوا مزيدا من هذه القصة المثيرة

فمن تكون ملكة سبأ هذه التي بدت في القرآن الكريم ذات فطنة ورأى وسلطان، وخبرة بتدبير الملك وأساليب السياسة ؟

وما صفة هذا العرش الذي قال فيه القرآن الكريم « عرش عظيم » فأضفى عليه سمة من جلال حين وصف العرش الالهي في السياق نفسه بالعظمة ؟

وما مدى قوة سبأ، رعايا الملكة الذين قالوا في اعتداد : « نحن أولو قوة وأولو بأس شديد » ؟

وأي شيء كانت هدية الملكة لملك نبي، تهابه وتشفق من مواجهته بالمخالفة والعداء الصريح ؟

وكيف كان هذا الصرح الممرد، الذي أذهل ربيبة القصور، الى حد أن حسبته لجة فكشفت عن ساقيها اتقاء الماء، ولم تفطن الى حقيقته حتى قال لها سليمان : انه صرح ممرد من قوارير ؟

أسئلة جالت بخواطر كثيرين ممن تلوا القصة المنزلة، وراحوا يلتمسون الجواب عنها في فضول غالب وشوق مستثار، فكان أهل الكتاب — من يهود الحجاز — هم الذين تولوا ارضاء هذا الفضول بما أوتوا من علم بأساطير الأولين

ومن ثم راجت في الافق الاسلامي، ذائعات شاذة، ملأت قصة ملكة سبأ باضافات وحواش دخيلة، وامتلأت كتب التفسير بهذه الاسرائيليات التي تضخمت تضخما أسطوريا :

فقيل — فيما قيل — ان أم بلقيس كانت من الجن، أما أبوها فالمشهور عند المسلمين أنه شراحيل ملك أرض اليمن كلها، وقد ورث الملك عن آبائه وأجداده الذين تعاقب منهم على العرش أربعون ملكا، ثم جلست عليه « بلقيس » حين مات أبوها وليس له ولد سواها

وذكروا في وصف عرشها، انه كان ثمانين ذراعا في ثمانين، وسمكه ثمانون كذلك. وكان من ذهب وفضة، ترصعهما أنواع من الجواهر. أما قوائمه فكانت من ياقوت أحمر واخضر ودر وزمرد !

وحددوا مقر ملك بلقيس، في قصر مأرب قرب صنعاء اليمن، وذكروا أن الهدهد حين أتاها بكتاب سليمان، ألفاها راقدة في مخدعها بالقصر، وقد غلقت الابواب جميعا عليها، فنفذ من كوة هناك وطرح الكتاب على نحرها وهي مستلقية، وقيل انها كانت في غفوة، فنقرها فانتبهت فزعة، وقيل أتاها والقادة والجنود حواليها، فرفرف ساعة والناس ينظرون، حتى رفعت رأسها فألقى الكتاب في حجرها، وكانت قارئة كاتبة عربية، لانها من نسل ملوك حمير

أما أهل مشـــورتها ، فأحصوا عددهم : ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا، كل واحد منهم على عشرة آلاف !

وكان حظ الهدية الملكية من تفانين الخيال جما وفيرا ، فروى «أنها بعثت اليه خمسمائة غلام أمرد عليهم ثياب الجوارى وحليهن الاساور والاطواق، وخمسمائة جارية في زى الغلمان ، راكبات خيلا مسرجة بالديبـــاج المنسوج بالذهب ، وملجمة بأعنة ذهبية مرصعة بالجواهر . كما بعثت اليه ألف لبنة من ذهب وفضـــة ، وتاجا مكللا بالدر والياقوت، ومسكا وعنبرا ، وحقا فيـــه درة عذراء لم تثقب ... » كما سمت القصة من رسل بلقيس الى سليمان، المنذر ابن عمرو من أشراف سبأ

ولم تمر مسألة الاهداء ببساطة، بل حددوا موضوع الامتحان وأسئلته فان كان سليمان نبيا ميز بين الغلمان والجوارى، وثقب الدرة ثقبا مستويا ! وان نظر الى رسول بلقيس غضبان فهو ملك ، يهون أمره ، أما اذا بدا لطيف المحيا فهو نبى !

وكان حفل استقبال ســـليمان لبلقيس عجبـــا : قيـــل انه أمر الجن فصنعوا قوالب من ذهب وفضة ، رصفوا بها بين يديه ميدانا طوله سبعة فراسخ ، وجيء بأحسن دواب البر والبحـــر ، فربطت على يمين الميدان ويساره ، ثم قعد على سريره ، واصطفت جنوده من الانس والجن والوحش والطير ، صـــفوفا أربعة متميزة ، يمتد كل صف منها الى آخر مرمى البصر

وبقى للصرح الممرد بعد هذا كله، نصيبه من التهاويل وتفانين الخيال: فقيل ان الجن خافوا أن يفتتن سليمان بجمال بلقيس الساحر ، فيتزوجها فتفضى اليه بأسرار لهم احتفظوا بها، وعرفتها هى ـ دون البشر ـ لان أمها جنية. وقيل انهم خافوا أن يكون له منها ولد ، تجتمع له فطنة الجن والانس، فحاولوا جهدهم أن يصدوا سليمان عن الافتتان بحسن بلقيس ، وزعموا له ان رجلها كحـــافر الدابة ، وأن ساقها شعراء مشوهة ، فاحتـــال سليمان بهـــذا الصرح الممرد الذى حسبته بلقيس لجة ، فكشفت عن ساقيها ، فاذا هى أجمل النـــاس ساقا وقدما !

واختتمت القصـــة بالاعجـــاب المتبـــادل : أعجبت بلقيس بحكمة سليمان ودينه فأسلمت معه لربه ، وأخذ هو بسحر جمالها الفتـــان ، فأحبها حبا شديدا ، وتزوجهـــا ، وأقرها على ملكها ، وأمر الجن فبنوا لها الحصون والقصور ، وكان يزورها في الشهر مرة فيقيم عندها ثلاثة أيام ، ومن نسلهما جاء ملوك الحبشة واليمن !

▭

وواضح من هذه الاسطوريات

أنها من تهاويل الخيال ، وأنها بعيدة كل البعد عن روح القصص القرآني، مجافية لاسلوبه فى البيان المعجز ، منافية لمألوف صنيعه فيما يتناول من أخبار الأولين وقصص الغابرين، حيث يكتفي – كما قلت – بموضع العبرة ومضرب المثل ، ويستهدف الهداية التى هى مناط التنزيل

وانما راجت هذه الاساطير لانها أرضت الفضول المستثار ، لمعرفة تفاصيل القصة المثيرة التى نزل بها الكتاب الحكيم مجملة موجزة، وخدع بها المفسرون لان من بين الذين جاءوا بها ، يهود أسلموا وحسن فى الظاهر اسلامهم أمثال وهب بن منبه وكعب الأحبار. على أن من المفسرين من أنكروا تلك الاباطيل الدخيلة على الاسلام ، ولفتوا الى خطرها ففى تفسير « البغوى » أن رجلا سأل عبد الله بن عتبة عما كان من أمر بلقيس بعد اسلامها ، هل تزوجها سليمان؟ فأجاب : ان مبلغ علمه أن أمرها انتهى الى قولها : « وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين »

وأورد « ابن كثير » كل هذا الحشد من الاساطير فى تفسيره لآيات سورة النمل ، ثم عقب عليها قائلا:

«والاقرب فى مثل هذه السياقات، انها متلقاة عن أهل الكتاب مما وجد فى صحفهم ، كروايات كعب ووهب، سامحهما الله تعالى فيما نقلاه الى هذه الأمة من أخبار بنى اسرائيل ، من الأوابد والغرائب والعجائب ، مما كان وما لم يكن، وقد أغنانا الله سبحانه عن ذلك بما هو أصح منه وانفع وأوضح وأبلغ ، ولله الحمد والمنة – ٨٢٩/٦ »

□

ومع استبعاد كل ما أقحم على قصة بلقيس من أساطير ، وتجريدها مما أضيف اليها من أوابد وغرائب، تبقى القصة بعد ذلك ، نفحة من سحر هذا الشرق وعطره ، ومزاجا عبقريا من روحانيته وماديته، وتتجلى « بلقيس » فى عنفوان جمالها ، وروعة جلالها ، وذكاء أنوثتها ، نموذجا أصيلا لحواء هذا الشرق بكل سره وسحره ، ومثالا عجيبا تلتقى فيه الارض بالسماء ، والآدمية بالنبوة ، والحقيقة بالوهم ،والتاريخ بالاسطورة ، والواقع بالخيال ...



دليلة

الداهية التي انخدع بها شمشون



ووضعت دليلة راس شمشون على حجرها، واشارت بالخنجر الى الشعر ليقصه الاعداء

وقف الرجل الضخم في مسيره ، وثنى رأسه الكبير الى الوراء ، ثم ارسلها ضحكة قوية مرحة ، ضحكة معدية كان من اثرها ان الصبية الذين كانوا يصطادون السمك في المجرى آداروا رؤوسهم الى مصدر الصوت، وافترت ثغورهم عن ابتسامة عريضة

وفي اللحظة التالية كانوا يهرولون خلال القرية وهم في انفعال عظيم ، ويصيحون بقولهم : « شمشون هنا ان جبار زره موجود بيننا »

انباء مثيرة حقا !

وهرع الرجال من حاناتهم ومن الحدائق ليروا الرجل الذي قال البعض عنه انه سيطرد في النهاية أهالي فلسطين المحتلين البغيضين الى كل النفوس من بلادهم

وعرج الرجل الضخم على شارع القرية ، وفي مشيته شيء من الاختيال والزهو

هذا هو شمشون ، وانه لرجل جدير بالنظر اليه ، والى خصلات شعره الطويلة السوداء ، ووجهه الاسمر ، وملامحه القوية ، ولحيته السوداء ، وعينيه السوداوين الباديتي الخبث والدهاء ، وشفتيه المليئتين المتأهبتين للضحك ، فلا عجب أن تتضاءل النساء أمامه ، وأن تخور قواهن ويضعفن قبالته

وكان يسير في خفة النمر ، وكأنه غير مدرك مبلغ قوته وبطشه ، وجثمانه الضخم يتمايل تمايلا منتظما فوق ساقين طويلتين متينتين ،وكان معطفه الذي لايمتد الى ما بعد الركبة يبدي للانظار قوة فخذيه

وتنهدت العذارى لمرآه ، وشعرت الزوجات أن القدر قد أساء اليهن

ورأى الرجال المعطف الزاهي الجميل وقد صقل بالزركشة البديعة الانيقة ، فكان خير ثوب يرتديه قاض من قضاة آل اسرائيل

ولقد كانت البلاد غاصة بأمثاله من الرجال الاقوياء الاشداء ، رجال في ضخامة الجمال ، وكذلك كانوا في صغر العقول كالجمال، اما شمشون فقد كان عظيما في قوته الجسمية والذهنية على السواء . كان قويا في حجته كما كان جريئامقداما في كفاحه وقتاله ، وكان الى جانب ذلك انساني الشعور محبوبا لا يفضل شيئا على التحبب الى النساء وملاطفة الحسان وترويضهن بغية القضاء على واحد من أهالي فلسطين

وطرقت آذان شمشون كلمات الاعجاب وهو يخطر في الشارع المكتظ المزدحم ، وسرته خواطره النفسية،وكان اعجاب هؤلاء القرويين منعشا قويا لروحه

لقد كانت مزحة بديعة حقا تلك التي حدثت في الليلة الماضية ،

اشتعلت الحرب بينهما منذ سخر من أنوثتها ، وكان سلاحها في هذه الحرب هو سلاح الفتنة والجمال والدلال وسلاح الحب والغرام ...

ولكن ما أسخف أهالي فلسطين وما أعظم غباءهم ، بيد أن عليه أن يكون أكثر حرصا وأعظم حذرا ، واذا كانوا قد اعتزموا مفاجأته ومهاجمته كل مرة يكون فيها مع امرأة جميلة ، فانهم سيكونون جميعا مثله كثيرى الاعمال جمى الانهماك

ألأن انسانا يريد أن يقضى عطلة الاسبوع على شاطىء البحر ، ثم يتفق أن تدعوه امرأة فتانة أن يؤنس وحدتها ، يكون هذا عذرا لاعدائه فيحاصرون المكان ، وقلوبهم تصطخب بالشهوة الى الانتقام ، والظمأ الى الدماء ؟

وكان من حسن الحظ أن أطل من بين السجف الحريرية ، ووقعت أنظاره على أشباحهم الساكنة ، فانسل عند منتصف الليل ، وغادر الدار من باب خلفى ، ثم تسلل على كثب من أعدائه المنتظرين كما يتسلل النمر الضخم ، حتى وصل الى بوابة المدينة ، وكانت بوابة ضخمة هائلة ، فاقتلعها فى سكون وحملها ، حمل البوابة والقضب الحديدية والعمد على أكتافه العريضة وابتعد عن المدينة • وسار فى الليل ذى الكواكب المتألقة حاملا على أكتافه ذلك الحمل العجيب وهو يضحك ، حتى وصل الى رابية على مقربة من حبرون ، وتبعد عن المدينة عدة أميال ، وهناك أقام العمد والبوابة ووضع المزاليج

وتصور وجوه أهالى فلسطين حين وجدوا أن بوابة مدينة قد أقيمت بشكل يثير الضحك والسخرية على رابية تبعد عن المدينة نحو ثلاثين ميلا • لقد كانت مزحة نادرة المثال ، ولقد بدت هذه المزحة الحادثة القديمة التى وقعت فى العام السابق ، حين قبض على ثلاثمائة من أبناء آوى ، وربط ذيولها جميعا بعضها ببعض ، ووضع مشعلا بين كل زوج منهـا ، ثم فك قيودها بين أهالى فلسطين • أو حين تكاثر عليه مئات منهم وهاجموه ، فالتقط ما يشبه المنجل وكان عظمة فك حمار ، وبهذا السلاح المتواضع استطاع أن يتغلب عليهم ، وأن يترك وراءه أكداسا من الموتى فى الميدان

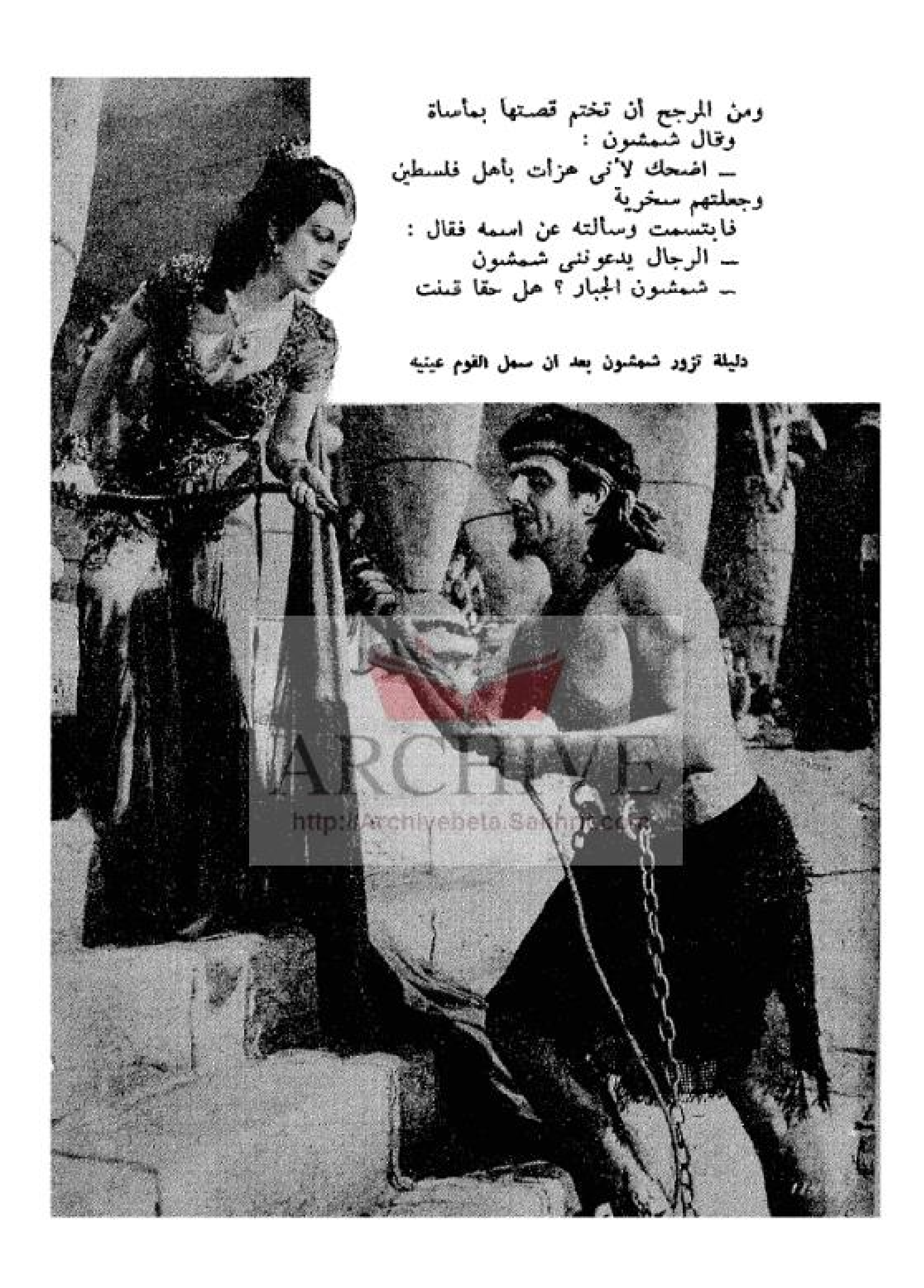
وسار شمشون مشغول الذهن بخواطره وأفكاره ، وكان يمشى كالظافر ، ويرشق الفتيات بابتساماته ، ويحنى رأسه بالتحية للرجال • ما أحلى الحياة وما أمتعها حقا ! وانه ليقف الفتنة بعد الفينة ليرسل ضحكات يرن صداها فى الوادى

وحدث أن أطلت امرأة من شرفة عالية حين كان يرسل احدى ضحكاته الرنانة ، وقالت فى رقة :

ـ يظهر انك فى حالة سرور وانشراح يا صاحبى

صوت شجى رقيق خافت موسيقى ، فتوقف شمشون ، ورفع أنظاره فرأى وجها كالزهرة اليانعة مشرقا فى عتمة الغروب • كان وجها شاحبا يتوجه شعر أسود كالح ، ذا عينين سوداوين وشفتين تبدوان رغم العتمة ممتلئتين حمراوين منتفختين انتفاخا مغريا • وكأنما كان جمالها كسحابة اكتنفت مرحه ، لأنه خمن ، وان كان لا يدرى لم كان هذا التخمين منه ، ان التريث مع هذه المرأة ستكون نتيجته بلا مراء السرور والحزن معا ،

ومن المرجح أن تختم قصتها بمأساة
وقال شمشون :
ــ اضحك لأنى هزأت بأهل فلسطين وجعلتهم سخرية
فابتسمت وسألته عن اسمه فقال :
ــ الرجال يدعوننى شمشون
ــ شمشون الجبار ؟ هل حقا قتلت



دليلة تزور شمشون بعد ان سمل القوم عينيه

أسدا بيديك العاريتين ، وفتكت بألف من أهالى فلسطين بعظمة فك حمار ؟

ــ لقد كان أسدا صغيرا ، أما عن الالف من أهالى فلسطين فانك تعرفين كيف يبالغ الناس ويغلون فى أحاديثهم

ــ انى أعرف ذلك حقا لانى دليلة

فحدجها شمشون فى اهتمام وقال:

ــ واذا كانت أحاديث الناس صادقة فانك قد سخرت من كثير من الرجال بقدر الذين سخرت منهم

ــ اذن فالاحاديث كاذبة ، لأنى لم ألتق برجل البتة ... حتى هذه الليلة

فنظر شمشون فى عينيها وطالع فيهما الدعوة ، ومع هذا فقد تردد وتلكأ ، وكان هذا غريبا من عاشق كانت طريقته سريعة ومباشرة فى غير تردد أو احجام

غير ان شمشون كان لأول مرة فى حياته قلقا مترددا مع امرأة ، فظل واقفا مكانه ، وراحا يتبادلان الاحاديث حتى أصبح وجهها بيضاويا باهتا تحيط به ظلمة الليل ، ووجد فيها ذكاء يماثل ذكاءه ، وأثلج قلبه هذا الاكتشاف ، لأنه وان كان قد عشق كثيرا من النساء لم يهو واحدة منهن ، بل كان يحتقرهن من أعماق قلبه

وفجأة ، وبطريقة عجيبة مثيرة ، أرسلته دليلة ، لأنها كانت امرأة عاقلة خبيرة بأساليب الرجال ، وكانت على يقين انه سيعود اليها بلا مراء

وقد عاد فعلا فى الليلة التالية ، وفيما تلاها من الليالى حتى راحت العذارى الساخطات يروون شكاتهن من أن المرأة دليلة قد استطاعت أن تسجل لنفسها نصرا جديدا ، وقالت الزوجات وربات الدور انها فى هذه المرة قد لاقت ندما ، وهمس الرجال بقولهم ان من الناس من يقسم لهم أوفر الحظوظ

وترددت الاحاديث فى الحانات والاسواق ، ولاكتها الالسن فى كل مكان ، وقال البعض : ان شمشون سرعان ما يمل ويسأم كالعهد به ، وقال آخرون ان دليلة سوف تنبذه وتطرده كما فعلت بكثير من نبلاء القوم وأغنيائهم

◘

ووصلت هذه الاحاديث الى مسامع أهل فلسطين ، وقد ظلوا منتظرين الثأر لأنفسهم من سخرية شمشون منهم ، فوفد على دليلة مندوبون عن الرؤساء والزعماء يحملون اليها أموال الرشوة ، وقالوا لها فى الحاح:

ــ ابحثى عن سر قوته الجبارة ، واعملى على أن تحيليه ضعيفا حتى نستطيع القبض عليه

وأبت دليلة فى بادىء الامر أن تستمع الى أقوالهم ، لأنها وان كانت تعبث بالرجال على الدوام ، لم يسعها الا أن تميل الى هذا الجبار الفاتن . بيد انهم همسوا لها بقولهم :

ــ اذا نجحت فى مهمتك فسنعطيك احدى عشرة مائة من القطع الفضية

احدى عشرة مائة من القطع الفضية ؟ انها لثروة عظيمة ، وما أسهل الظفر بها . وساءلت نفسها أفى الدنيا رجل يساوى مثل هذ

القدر ! لقد أصبح شمشون يحبها ويهواها حقا ، ولكنه رجل لم يخلق للثبات على عهد واحد ، وسرعان ما يهجرها ويتركها وراءه وهي ليست أغنى مما كانت عليه من قبل

احدى عشرة مائة ! انها تستطيع بها أن تبتاع الاثواب الحريرية ، والرياش الفاخر ، والزيوت العطرية ، والادهنة المبردة

وهي بين أخذ ورد تغلب الجشع على الحب ، وبايماءة بسيطة من رأسها أخرجت أهالي فلسطين

وفي تلك الليلة ، وفي مسكنها المؤثث بالرياش الفاخر ، والسجاد الوثير ، والستائر المزركشة البديعة ، تمدد شمشون فوق أكوام من الوسائد الارجوانية ، وراح يمزح معها ويكايدها

وسألته في سذاجة ظاهرة عن سر قوته فأجابها مداعبا :

ــ يا حبيبتي لو أنك قيدتيني بسبع قطع من العروق فاني أصبح عديم الحول كالقط

ولكنها حين أتمت ربطه اقتصر على أن مد ذراعيه فتمزقت القطع وتقطعت كالخيوط ، وضج بالضحك ٠

ولما رأى قطوب جبينها قال :

ــ الآن لاتسخطي ياحبيبتي فانك ان شددت وثاقي بحبل جديد ، ويجب أن لا يكون قد استعمل من قبل ، فانك ستجدينني من الضعف كأي رجل

ومرة أخرى شدت وثاقه بحبل جديد ، فتمطط وقطع أغلاله اربا ٠ وعادت ضحكاته تدوي في الغرفة المعطرة ٠ ولما عتبت عليه دليلة هذه السخرية منه ، اقترح عليها أن تجدل جدائل شعره حول منسجها كي تحيله ضعيفا ، ولم تتردد لحظة واحدة فقامت بهذا وهي تعتقد انه ينطق الصدق ، ولكنها حين أتمت عملها جذب شمشون رأسه وخلص شعره من المنسج ومعه جانب كبير من آلة المنسج

وعاد يضج بالضحك مرة أخرى ثم تركها وهو يظن انه ممايبعث على الجذل والسرور أن يستبدل الانسان التغزل في المرأة أحيانا باغاظتها ومكايدتها ، وأن يراقبها ووجهها يتخضب من الغضب والسخط ٠ فقد كان شمشون يحب من النساء المرأة ذات النزعات والانفعالات

غير أن دليلة كانت تتقلب على جمر من الغضب والثورة ، فقد سخر منها الجبار الضاحك ثلاث مرات ، وهزأ بها ثلاث مرات كانت على قيد أنملة من ربح الاحدى عشرة مائة قطعة من الفضة ، وفي كل مرة كان ينتزع هذا الربح من يدها بحيله الصبيانية واستحالت آخر بقية من الحنان الذي كانت تشعر به نحوه الى مقت وحقد

لقد نشبت الحرب بينهما منذ تلك اللحظة ، وعلى أساليبها وطرائقها ٠ وكان سلاحها في هذه الحرب سلاح الجمال والدلال وسلاح الحب والغرام ، فلما عاد شمشون لزيارتها بعد ذلك استقبلته بالجفوة والتدلل ، ولعبت معه الدور الذي تعرف انها خير من تجيده

وليلة بعد ليلة ظلت تنأى عنه ، وتبعده عن نفسها في هدوء يبعث

على الجنون ، وكان حين يثور ويحتج بدافع حبه تقول له :

ـ كيف أستطيع أن أومن بهذا الحب اذا كنت لا تريد أن تثق بي حتى في الامور التافهة ، ولا تركن الى بثقتك فيها ؟ وما قيمة هذا الحب اذا كنت تسخر مني بالاكاذيب ؟ اخبرني بسر قوتك واذ ذاك أستطيع أن أومن بحبك

وفي ذات ليلة وقد مزقه الوجد جازف شمشون وقال لها :

ـ ان السر في شعرى ، قص شعرى فأصبح عديم الحول والقوة

فوثب قلب دليلة · هاك الحقيقة أخيرا · لقد عرفتها ووقفت عليها وطالعتها في عينيه وفي نبرات صوته البائسة · وفيما كانت تتظاهر بأنها قد لانت له ، كانت تشغل نفسها بالتفكير في خططها · عليها بادىء الامر أن ترسل رسالة الى أهالى فلسطين

« تعالوا ومعكم الاموال ويرجل معه موسى »

ولما أقبلت خادمتها بعد ذلك ، وهمست في أذنها أن أهالى فلسطين ينتظرون في الغرفة الخارجية ، اجتذبت دليلة رأس شمشون ، شعره حتى غفت عيناه

وباشارة منها تسلل واحد من الاعداء الى الغرفة ، وفي سرعة عظيمة قص شعر ذلك الجبار

وحانت لحظة انتصار دليلة

وأهابت بشمشون أن يستيقظ وهي ممتقعة اللون ، وقالت له :

ـ قم فقد أطبق عليك أهالى فلسطين

واستيقظ شمشون ، وابتسم·· نضال آخر ، وكفاح جديد كما يظهر · ووثب واقفا على قدميه واستعد للنضال ، ولكنه شعر بضعف عجيب · ولما أطبق عليه أعداؤه ألفى من الصعب العسير عليه أن يشتتهم ، واستولى خمول عجيب على أعضاء جسمه ، وتخلخلت ساقاه وشعر بالخور والاعياء

ولاحت منه نظرة الى المرآة ، ورأى شعره المقصوص ، واذ ذاك أدرك الحقيقة فسلم نفسه دون نضال ، وأحنى رأسه احناءة ساخرة لعشيقته ، وقيد الى غزة · وفي تلك الليلة فقئت عيناه

وقضى شمشون بضعة أشهر وهو يشتغل في سجن غزة بطحن الحبوب · وكان عملا من أعمال النساء

وفي هذه الاشهر القلائل حاول أن يألف العمى ، وكان يعرف ان هذا فوق احتماله · هو الذى كان شعاره في الحياة « قبل حبيبتك واضرب خصمك » هو الذى أحب الحياة حبا جما ، وأحب النشاط والحركة والجمال والمعيشة الخطرة المليئة بالمغامرات والمجازفات !

أن الانتقام وحده هو الذى يجعل هذه الحياة محتملة ، فراح ينتظر حتى تتاح له فرصة الانتقام يوما من الايام · وفيما كان في انتظار فرصته كان شعره ينمو ، وما من أحد غيره كان يعلم هذه الحقيقة

◘

كانت حفلة تخلد في الذاكرة فقد اجتمع فيها كل نبلاء غزة وكهان

رجالاتها للاحتفاء بالقبض على شمشون ، وكان أكثرهم سكارى ، والآخرون مترقبين منظرا مسليا ٠ وبعد أن انتهوا من تناول الطعام ، اجتمع ثلاثة آلاف من الرجال والسيدات من كبراء الاسر، وتجمعوا فوق سقف القصر المنيف ٠ وكانت دليلة التى باعت عشيقها من أجل الفضة ضيفة الشرف فى هذه الحفلة

واقترح أحدهم أن يؤتى بشمشون من سجنه رغبة فى تسليتهم ٠ وحيت مجيء الجبار عاصفة من الضحك الصادر من ثلاثة آلاف حنجرة ، وتقدم شيخ يتعثر يقوده غلام صغير الى فناء القصر ، وتريث لحظة بينما كانت الجموع الضاحكة مطلة من فوق حواجز الشرفة العظيمة ، وهم لا ينفكون عن السخرية منه حين رأوا عينيه لاتزالان باديتى الجراح ، ويديه العظيمتين تترددان فى الهواء

وصاح البعض :

ــ انظروا الى جبار زره

ــ ما ثمن شمشون الجبار الآن ؟

ــ لقد ذبح أسدا يوما ما بيديه أما اليوم فهو يركن الى غلام

وسمع صوت امرأة وسط هذا الضجيج تنادي اسمه، وجفل شمشون فى وقفته ، لأنه لم يكن هناك غير امرأة واحدة تناديه بهذه الطريقة ، فقد كانت أبدا تناديه بقولها : شمشون الرجل المشرق

اذن فهى موجودة كذلك ٠ لقد عدل القدر ، وهذه هي النهاية بلا ريب ٠ لقد كان ذلك مقدورا

وفى سرعة همس فى آذن الغلام!

ــ اذهب بى الى العمد التى تدعم القصر حتى أستطيع أن أستند اليها

وفعل الغلام ذلك فى غير استرابة، وانتفض شمشون جذلا وسرورا حين جس نبض يديه الممدودتين وقد تقبضتا على عمود لأنه عرف أنها العمد الاساسية لبناء القصر

وفجأة ساد الصمت الجموع الغفيرة كأنما قد سمعوا تحطما عظيما ، وفى ذلك الصمت الرهيب رفع شمشون عينيه غير المبصرتين نحو هذه الجموع، وفى صوت كالرعد قال : عيناى ! يا الهى حبنى القوة لأثأر لعينى !

وفى سرعة عظيمة وقبل أن يتمكنوا من تخمين عزمه اليائس ، أحنى جسمه الضخم ، وفى تلك اللحظة عرف ان قوته الجبارة قد غادت اليه، وبمحاولة عنيفة برزت من جرائها عضلاته ، وتدفق العرق من جبينه جذب العمد ، وشعر بها تتأرجح ، وتطقطق ثم تتهدم الى الداخل

وتعلق السقف الفسيح فى الفضاء ثانية مليئة بالرعب العظيم ، وعلت صيحات الضحايا ، ودوت فى جوف الليل ، وهبط السقف الى الداخل ، وقد دوى فى الاجواء صوت سقوطه، ووقع هشيما وحطاما من آجر وتراب وحجارة وأشلاء وصيحات مخنوقة

وانقضت دقائق كانت فيها أصوات المحتضرين عالية رهيبة على الاسماع ، ثم راحت تخفت ، صوتا بعد صوت ، ولم يبق أخيرا الا هشيم من أبنية متهدمة ومئات من أجسام ملتوية ، صامتة ساكنة مخوفة

وتحت هذا الحطام جبار راقد وعلى وجهه شبح ابتسامة

(١٠ م ٠)

أول امرأة خفق لها قلب لويس الرابع عشر ، أحبته وأحبها ، ولكن تدخلت عوامل حالت بينه وبينها !

ماري مانسيني

عشيقة ملك يدخلها الدير

كانوا سبعة أخوة وأخوات . جاء بهم الكردينال مزاران من ايطاليا الى فرنسا ، فلعبوا جميعا دورهم في المجتمع الفرنسي ، وكان لهم في البلاط شأن كبير

أما الشابان ، بيير مانسيني وفيليب مانسيني ، فقد أنعم عليهما بلقب نبيل وقتل أولهما في السادسة عشرة من عمره . وشغل الثاني مناصب عدة وانقرضت ذريته في أثناء الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩

بقيت الاخوات الخمس ، وجميعهن جميلات ذكيات ، بلغن من الشهرة والجاه قسطا وافرا : لاورا ، وماري ، وأولمبيا ، وماريان ، وهورتانس . وحديثنا هنا يتناول الثانية فقط ، ماري مانسيني ، وهي أشهرهن وأجملهن ، وقد أوشكت في وقت من الاوقات أن تتبوأ عرش فرنسا مع لويس الرابع عشر ، لو لم يحل خالها نفسه ، الكردينال مزاران ، دون تحقيق ارادة الملك !

كان الكردينال مزاران ، الايطالي ، وزيرا في عهد لويس الثالث عشر ، ولويس الرابع عشر . وتزوجت أخته « هرونيما مازاريني » النبيل الايطالي لوران مانسيني ، وأنجبت منه أبناءها السبعة الذين جاء بهم خالهم الى فرنسا فاصبحوا فرنسيين مثله ، وضمنوا مستقبلهم في وطنهم الجديد

فماري مانسيني ولدت اذن في روما ، سنة ١٦٣٩ . وعندما دعاها الكردينال اليه في باريس ، كانت في الرابعة عشرة من العمر . فدخلت الدير لتدرس اللغة الفرنسية لانها لم تكن تجيد غير الايطالية ، لغة بلادها . وانتقلت من دير الى دير — أي من مدرسة الى مدرسة — فعرفت لويس الرابع عشر ، وكان في ذلك الوقت ملكا تحت الوصاية ، ويكبرها بسنة واحدة فقط . ونمت بين الفتى والفتاة صداقة متينة — وصداقة الصبى أمتن أنواع الصداقة دائما — وهكذا شاءت الظروف أن يكون الملك الشاب . بجانب الفتاة الايطالية الحسناء عندما تفتح قلبه للحياة ونبض بعاطفة الحب للمرة الاولى

وفي سنة ١٦٥٨ ، مرض لويس



الرابع عشر وهو في مدينة كاليه ، فلازمتـــه ماري مانسيني وكانت تسهر عليه في الليل وتقـدم له الدواء بيدها ، مما ضاعف تعلقه بها وميله اليها٠وبعد شفائه من مرضه، فاتحهـا للمرة الأولى برغبتـه في اتخاذها زوجـة له ، وجعلها ملكة تشاركه عرش فرنسـا ٠ وتقبلت الفتاة طبعا هذا الاعتراف من الملك بالفرح والاغتباط ، ولكن الكردينال مزاران ، القابض على زمام المملكة بالنيابة عن الملك الشاب٠لم يغتبط ويفرح من ناحيته ، بل أبدى منـذ اللحظة الاولى عدم رضائه عن اتفاق الشابين وتماديهما في الحب ٠٠٠

وقامت الاسرة المالكة برحلة الى مدينة ليون ، فدعا لويس صديقته لمرافقته في تلك الرحلة فلبت الدعوة، وتجلت علاقة الملك وماري أمام رجال الحاشية ونسـاء القصر ، فأدركوا جميعا أن لويس الـرابع عشر قد عثر على الفتاة التي تجلس معه على العرش ٠ وكان رجال السياسـة حينذاك يتفاوضون مع اسبانيا لكي يخطبوا للملك الاميرة ماري تريزا ابنة الملك فيليب الرابع ، حاملة لقب دوقة النمسا ٠ وهي التي عرفت في التـاريخ باسـم « ماري تريز دوتريش » ٠ فبلغت الجرأة بماري مانسيني انها كانت تصرح أمام نساء الحاشية الملكية بأن المفاوضـات لن تنجح وان الاميرة الاسبانية لن تجلس على عرش فرنسا !

ولكن المفاوضـات نجحت وتم الزواج في سنة ١٦٦٠ لان مزاران أراد ذلك ٠ فقـد حدث في خـلال رحلة ليون أن أدرك الكردينـال الداهية ان الخطة التي رسمها للتقرب من اسبانيا ستصبح في خطر اذا لم يتدارك الامر ويبعد ابنة أختـه عن الملك الشـاب ٠ فأرغم ماري على الذهاب الى بلدة بروواج مع أختيهـا ماريان وهورتانس ، وحرم عـلى الثلاثة مغادرة البلدة بدون أذن منه٠ ولكن الملك نفسه ذهب من مدينـة ليـون سرا ليلتقي بحبيبتـه في بوردو ٠٠!

غير ان ارادة الكردينـال كانت فوق كل ارادة ٠ فان ذلك الرجـل الحديدي كان يضع أهدافه السياسية ومصلحة الدولة فوق كل هـدف ومصلحة ٠ وقد بكى الملك عنـدما أبلغوه خبر موافقة الدولتين ـ فرنسا واسبانيا ـ على زواجه وبكت ماري مانسيني أيضا ، وكتبت اليه تقول: « أحبك وأنت تحبني لا أشـك في هذا ٠ ولـكنك ملك وللعرش أحكام يجب أن نخضـع لها جميعـا ٠ فالوداع ! » ولـكنه كتب اليها من ناحيته يقول : « انني أرضى بالزواج من أميرة لا أعرفها عملا بمقتضيات التقاليد ٠ ولكنني أحبـك ولا أحب غيرك ! »

وظن الكردينـال أن زواج الملك سيخمد في نفسـه عاطفة الحب نحو ابنة أخته ٠ ولكنه أدرك سريعا انه أخطأ ٠ فقرر أن يجـد لها من بين أشراف المملكة زوجا يلهيها ويبعدها عن الملك لكي تقطع كل علاقة بلويس الرابع عشر ٠ وبحث بـين عظماء



لويس الرابع عشر : احب ماري واحبته ولكن الظروف حالت بينهما

الكردينـــال مزاران ... وزير لويس الرابع عشر وخال ماري

فرنسا فلم يجد بينهم من تتوافر فيه الشروط التى يطلبها ٠ فوقع اختياره فى النهاية على الامير كولونا من اشراف نابولى ، ورضيت مارى بأن تتزوج ذلك الشريف لا لانها تحبه بل لان خالها اراده زوجا لها ٠ وشاءت الاقدار أن يموت الكردينال قبل أن يتم عقد الزواج الذى مهد له ، وكان بوسع مارى مانسينى أن تفسخ الخطبة وتعدل عن الزواج ولكنها أبت الا أن تنفذ رغبة خالها بعد موته ، فى سنة ١٦٦١

□

وغادرت الحسناء فرنسا ، فى موكب عظيم ، يحرسه جنود الملك ويحمل معه الهدايا الثمينة التى أراد لويس الرابع عشر أن يقدمها باسمه وباسم أسرته وبلاطه الى الفتاة التى أوشكت أن تصبح ملكة فرنسا ٠ وعاشت مارى مانسينى ، وقد صارت تحمل لقب اميرة كولونا ، خمس سنوات فى نابولى على احسن مايكون من الوفاق مع زوجها ، ورزقت منه ثلاثة أبناء ، وكانت دارها الفخمة ملتقى الطبقات النبيلة فى المدينة ، وكانت هى سيدة المجتمع ليس فقط فى نابولى بل وفى ايطاليا بأسرها ٠ وقد كتب عنها بوزانتى يقول : « ان بنات مانسينى أجمل نساء هذا العصر ٠ ومارى مانسينى أجمل الاخوات الخمس على الاطلاق ٠ »

ولكن الخلاف دب بين الزوجين فى سنة ١٦٦٦ ، وعبثا حاول أصدقاء الطرفين أن يعيدوا المياه الى مجاريها فقد فشلت مساعيهم ، فانفصلت مارى عن زوجها ، وأقامت وحدها فى قصر منعزل ، وراح الامير كولونا ينغمس فى حياة كلها بذخ واسراف وعربدة ٠ وبلغ به الاستهتار بالمجتمع أن دعا للاقامة معه فى قصره اثنتين من عشيقاته الكثيرات ، فثارت ثائرة الزوجة بالرغم من أنها كانت منفصلة عنه وأرادت أن تهجر نابولى وتسكن فى البندقية ، فمنعها زوجها من ذلك فى سنة ١٦٧٢ ، ولكنها هربت متنكرة فى ثياب رجل ، ومعها احدى اخواتها ٠ وبعد التنقل من مدينة الى أخرى ، ذهبت الاخت هورتانس الى تورينو ، وواصلت مارى السفر الى باريس ، ولكن خيبة الأمل كانت تنتظرها هناك ٠ فبدل أن ترى الملك يرحب بها ويفتح لها أبواب قصوره ، رأته على عكس ذلك يأمر بارسالها الى الدير ، فأقامت فيه معززة مكرمة ، وعين لها الملك معاشا ولكنه لم يستقبلها فشعرت بحزن شديد وأدركت أنه لم يعد لها أى أمل فى استئناف حياة رغدة فى باريس ، وغادرت فرنسا من جديد مع أخيها فيليب الى ايطاليا حيث استقرت فى ميلانو

وحاول زوجها أن يعيدها اليه فهربت مرة أخرى الى بلاد فلاندر ، فطاردها كولونا ، وتمكن من استصدار أمر بالقبض عليها ، وارغامها على دخول الدير فى بروكسل ٠ حينذاك رأت المرأة أن لا سبيل للتخلص من ذلك الزوج وملاحقاته الا بالفرار الى بلد لا سلطان له ولا لملك فرنسا عليه ، فهربت من الدير وتمكنت من

الوصول الى اسبانيا في سنة ١٦٧٤، وأقامت فيها ١٧ سنة بدون أن تغادرها ...

ولكنها لم تعرف فيها الهدوء ولم تذق طعم الراحة . فان الملوك والامراء في ذلك الوقت كانوا يتعاونون ويساعد بعضهم بعضا في قضاء مآربهم الشخصية ، بالرغم من العداوة السياسية القائمة بين دولهم . ولم يكن لماري مانسيني من يشفع لها لدى البلاط ، لا في فرنسا ولا في اسبانيا ولا في غيرهما من البلدان، بالرغم من جمالها المفرط وحسنها الفتان . ولهذا ، فاننا نجدها في اسبانيا حائرة لا تعرف الى أين تتجه، ولا على من تعتمد . فان زوجها الحقود يثير عليها الناس في كل بلد تحل فيه ، ولا يترك لها غير أبواب الاديرة تطرقها ، فقررت ذات يوم أن تدخل الدير مرة أخرى لا للالتجاء فيه كضيفة عابرة ، بل لترتدي الثوب وتصبح راهبة . ولكن حياة الراهبات لم تكن لتروق الحسناء التي عرفت مباهج الدنيا وزخارفها فارادت أن تستعيد حريتها كاملة وتغادر مدريد الى النمسا ، غير ان زوجها تمكن من حمل السلطات الاسبانية على القبض عليها وسجنها . ولم ينقذها من هذه الحالة غير موت الامير كولونا في سنة ١٦٨٩ ...

حينذاك فقط أصبحت ماري مانسيني حرة من كل قيد !

ولكنها بلغت الخمسين من العمر . فهل تفكر في الزواج مرة أخرى ؟

لقد فكرت في ذلك ولكنها عدلت عن تنفيذ الفكرة عندما استعرضت ماضيها وأدركت أن مستقبلها سيكون عرضة لمتاعب جديدة اذا هي اتخذت لها زوجا ثانيا . فقررت حينذاك السفر الى ايطاليا لمشاهدة أبنائها ، وغادرت اسبانيا في سنة ١٦٩١ بدون أن يعترضها أحد ، بل سافرت مشيعة بالاكرام والاجلال من الملك والملكة !

رأت أبناءها ، فرحبوا بها وأقسموا لها بأنهم سيتفانون في حبها والعناية بها ، لكي تنسى معهم ما ذاقته من عذاب مع أبيهم كولونا، وعادت الاقدار فابتسمت للمرأة بعد أن ظلت سنوات عديدة عابسة في وجهها

وانتقلت ماري الى اسبانيا من جديد ، ثم عادت الى ايطاليا بعد أن زارت باريس ، وماتت في مدينة بيزا سنة ١٧١٥،وهي في السادسة والسبعين من العمر !

وفي السنة ذاتها ، مات لويس الرابع عشر ، الذي أوشك في وقت من الاوقات أن يجعل منها ملكة لفرنسا ، والذي خفق قلبه للمرة الاولى بعاطفة الحب لها . وكان الملك في السابعة والسبعين . ومن غرائب الصدف أن يولد الاثنان في سنة واحدة تقريبا ، وأن يموتا في سنة واحدة ، وأن تجمع الظروف بينهما في باديء الامر ثم تفرق بينهما السياسة

كاترين الثانية

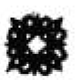
الجمال الذى حكم روسيا

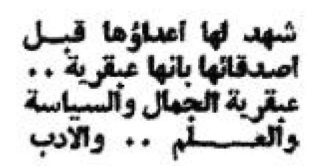
بقلم الدكتور أمير بقطر

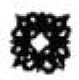


اعتلت كاترين الثانية عرش روسيا عقب فترة صاخبة من فترات التاريخ ، ظلت فيها تلك الامبراطورية المترامية الاطراف ، زهاء أربعين عاما ، ترقص فوق فوهة بركان فبين السنة التى مات فيها بطرس الاكبر (١٧٢٥) ، بطل الشمال ، وتلك التى جلست فيها كاترين على العرش ، ابتليت روسيا بستة حكام من حثالة الامراء والاميرات ، وأحط الاباطرة الذين آل اليهم تاج الامبراطورية ، فهم ثلاث نساء خليعات مستهترات ، وطفل عمره ١٢ عاما ، ورضيع عمره سنة ، وغر ابله فى العقد الثالث من عمره ، كان شغله الشاغل فى البلاط اللعب بعساكر من الدمى الخشبية ، كما كان يفعل ملك فرنسا الاحمق المأفون ، لويس السادس عشر ، زوج مارى انطوانيت

كان بطرس الاكبر شديد الرغبة فى انتزاع روسيا من آسيا وحضارتها البدائية ، وادخالها فى قلب أوروبا ومدنيتها الساحرة الخلابة ، فتنقل بين عواصمها ، واتصل بملوكها ، وتتلمذ كأبسط العمال فى مصانعها وأحواض السفن فى مرافئها ، وانشأ مدينة بطرسبرج لتكون نافذة تطل منها روسيا على أوروبا ، وحلق ذقون القواد والزهاد والقساوسة ، وذبح ابنه الكسس ذبح الشاة ، حتى لا يخلفه فى الملك ويرجع بالبلاد الى اسيويتها ، وزوج عددا من الاميرات من بناته وبنات اخوته لدوقات أوروبا وملوكها ، حتى تزيده المصاهرة ارتباطا بمدنيتهم . ولم يدر بخلده ان العرش بعده ، سيصبح فريسة لمؤامرات وعصابات أجنبية ،









وخيانات داخلية من اشراف الروس الذين اعتنقوا مبادىء اوروبا وتقاليدها ورطنوا بلغاتها ، فانقطعت الصلة بينهم وبين الرعية

خلف بطرس الاكبر على العرش زوجته الثانية كاترين (الاولى) ، وهى فى الاصل خادمة من لتوانيا لاحق لها فى الملك . ومنها آل العرش بعد سنتين الى ابنها بطرس الثانى ، نجل ذلك التعس الكسيس الذى ذبحه أبوه بطرس الاكبر بيده ، ومات بطرس الثانى فى الخامسة عشرة من عمره فخلفته الاميرة آن « Anne » بنت أخى بطرس الاكبر (القيصر الطرطور يوحنا الخامس) . وسرعان ما قضت نحبها فانتقل التاج الى ابن أخيها جون السادس ، وكان عمره سنة واحدة . ولم ينقض عام حتى خلع من الملك ، واعتلت العرش اليصابات البنت الصغرى لبطرس الاكبر ، واخيرا تولى الملك الغر الذى سبقت الاشارة اليه ، بطرس الثالث ، ابن أميرة هولشتاين ، التى كانت يوما ما تطالب بعرش السويد . ومن مساخر القدر أن كاترين الثانية فاتنة التاريخ ، كانت زوجة لذلك الابله ، الى ان قتله رجال حاشيته ، فتولت الحكم بعده وتنفست روسيا ، بمجيئها الصعداء

تبدا قصة الامبراطورة كاترين الثانية وهى غادة ناهدة هيفاء فى الرابعة عشرة من عمرها ، حلوة القسمات ، متمايلة الاعطاف ، تبدو اكبر من سنها جسما وعقلا وعاطفة . لم تكن روسية ولا تمت لروسيا بصلة . اسمها الاصلى قبل ان تنزح الى روسيا « الاميرة صوفيا اوجستا » ، كان أبوها مارشالا فى

جيش بروسيا وأمها من أسرة فردريك الاكبر . ولم تكن أمها من ذوات اليسار ، فقد دخلت روسيا وبنتها صوفيا لا تملك من الثياب سوى ثلاثة فساتين . وسرعان ما استقلت عن أمها التى ساءت سمعتها فطردتها الحكومة وسرعان ما جذبت أنوثتها الفائرة وجمالها الفتان الانظار والقلوب ، فزوجوها لذلك الابله الذى آل اليه العرش باسم بطرس الثالث . وكان زواجا غير موفق من البداية . فقد كانت مثقفة وهو جاهل ، ذكية وهو غبى ، وكان هو شديد الكراهية للارثوذكسية حتى انه اضطر كهنتها الى ارتداء ملابس القساوسة الالمان البروتستانت ، وكانت هى تعشق الارثوذكسية . وفوق ذلك فانه عاش جهرا مع خليلات فاسدات بعيدا عنها . ولما كان الجيش معها ، فقد تولت الملك عقب وفاته مقتولا مباشرة

الامبراطورة العبقرية

كانت تتابع أسمى أنواع الثقافات الاوربية خطوة خطوة، فقد عشقتها على حد قولها منذ أن وقع فى يدها أحد مؤلفات فولتير . وتغلغلت منذ ذلك الحين فى شتى الموضوعات ـ من كتاب بلاكستون فى القانون الى مؤلف بافون فى التاريخ الطبيعى . ثم عكفت على تصفح تاريخ روسيا والتعمق فيه الى أقصى حد . واشتدت عنايتها بالكتاب والادباء ، فرفعت الى السماك فى حاشيتها الشعراء وبالغت فى تكريمهم ، واستلهمت منهم الوحى . وبفضلهم ألفت كتبا فى الادب يتجاوز عددها الحصر . وكان سيل الرسائل التى تدونها يوميا تفيض رقة وعذوبة حينا ، وقوة وقسوة وشدة مراس حينا . ومع ذلك كانت فى تواضعها تأبى أن تفاخر بأدبها الرفيع ، وتكرر القولَ ان صناعتها الادارة والسياسة والدبلوماسية قبل كل شىء ، وان الادب مجرد هواية من الهوايات العديدة التى تفوقت فيها ، لاسيما النقش على الصوف والحفر على الخشب والنحت والتصوير

والواقع أن الجميع ، بما فى ذلك الد اعدائها الذين تضامنوا مع زوجها ضدها ، قد شهدوا لها بأنها كانت عبقرية سياسية منقطعة النظير . وقد تجلت مواهبها فى مقدرتها على التوفيق بين البيئة الصاخبة المضطربة التى كانت تعيش فيها ، والاصلاح الشامل الذى كانت الامبراطورية تتطلبه . وتجلت كياستها السياسية ولباقتها الدبلوماسية فى الرسائل الفريدة التى كانت تتبادلها مع كل من فردريك الاكبر ، وجوزيف الثانى ، ودى لامبير ، وفولتير ، وكبار قوادها ، ورؤساء اداراتها لاسيما الجنرال

« بولكن» ، وكبار الادباء الفرنسيين الذين يطلق عليهم اسم Encyclopedist وكانت هي واحدة منهم .

ومن هؤلاء « جريم » الذى كتب عنها يقول انهـــا كانت تتدفق فى حديثها الادبى العلمى كالغدير الصاق، وكانت كل كلمة تخرج من فمهـــا تتألق وتضىء ما حولها ، حتى انه كان يستغرق بعد كلّ مقابلة معهـــا فى تأملات عميقة ، ويأرق فى فراشه الى ساعة متأخرة

وبلغ من نشـــاطها انهـــا كانت تستيقظ فى الساعة الخامسة صباحا وتوقد النار فى المدفاة بنفســـها . وكثيرا ماكانت تقضى ١٥ ساعة يوميا فى تصريف شئونها . وكان لهـــا اربعة من كاتمى أسرارها ، وعـــدد كبير من المساعدين والموظفين والخدم، وكانت تحرص على مراعاة شعورهم وكانت طريقتها فى العمل روسية ، لا المانية ولا فرنسية كما كان المتوقع، كما انها رغم اعجابها بالثقافة الاوربية، لم تكن كبطرس الاكبر كثيرة الرحلات والاسفار الى الخارج ، وانما كانت كثيرة التنقـل فى ارجاء بلادها برا ونهرا لتفقد شئون الدولة وصوالح الرعية . وكان أفراد حاشيتها أشد ذكاء من رجال بطـــرس الاكبر ، ويرجع الفضل فى ذلك الى ذكائها

غراميات امبراطورة

كان لابد لامرأة فتانة ككاترين اجتمعت فيها كافة المزايا التى يحبها الرجل ، بغض النظر عن كونهـــا امبراطورة ، أن يكون لها عشاق من رجال البلاط وضـــباط الجيش ، تختلس معهم أوقات الفراغ ، فتقدم لهم اشهى الوان الطعام على افخـــر الموائد ، وتولم لهم الولائم والحفلات الساهرة الراقصة ، وتتبـــادل معهم كؤوس الشراب مترعة بأجود الوان الخمور . ولما كانت كاترين مثـــال الشجاعة والشخصية القوية ، فقد كانت تصطفى من العشاق غير هؤلاء، نفرا ممن توسمت فيهم العبقرية الادارية ، والرجولة والشـــجاعة والقوة . وقد كانت لا تانف أن يغازل احدهم الجالسة على العرش ويبادلها عبارات الغرام ، لاسيما «بوتمكن » الذى كانت تفاخر به قائلة انهـــا تعشق فيه جرأة العقل وجرأة القلب وجرأة الروح ، وأن الرسائل التى كانت تتبادلها معه ، كانت شـــبيهة بما يكتبه رجل الى رجـــل ، مع فارق واحد ، وهو أن أحدهما كانت امرأة ساحرة جميلة !

وبالرغم من انها تولت الحكم على اعقاب حقبة لم يشهد تاريخ روسيا ماهو اشد منها فسادا وظلاما ، فانها استطاعت بلباقتها أن تخلـــق من رجالها سياسيين . اتخذتهم لهـــا أصدقاء ومعجبين . وفى مقدمتهم شبان يصغرونها سنا كانت تبالغ فى

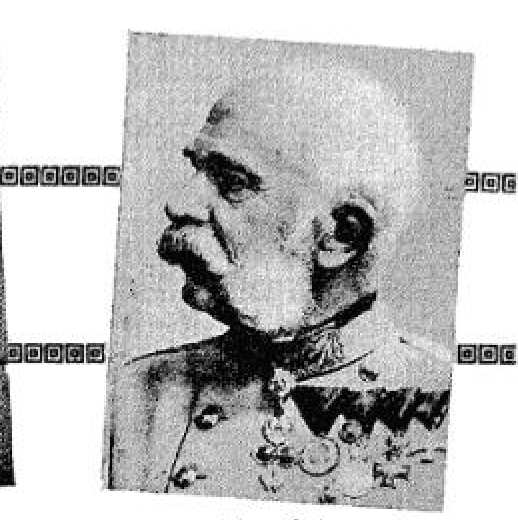
تدليلهم كأطفال معززين ، تفرح لافراحهم ، وتبكى وتحزن لاحزانهم

دسائس ومؤامرات ومتاعب !

على ان حكمها كان من بدئه الى ختامه سلسلة متصلة الحلقات من الدسائس والمكائد والمؤامرات ، ولا عجب فى ذلك فلم تكن كاترين وارثة شرعية للعرش ، ولم تنحدر من سلالة ملوك روسيا ، وقد حالت فى خلال الـ ٣٤ سنة التى حكمت فيها دون الوارث الحقيقى الشرعى، ابنها بولس « Paul » ، الذى كانت اليزابث تنوى تنصيبه ملكا بدلا من ابيه الاحمق . كذلك كان احد المستحقين للعرش الطفل يوحنا السادس الذى تولى العرش سنة واحدة ، وقضى البقية الباقية من حياته فى السجن . ظلت كاترين تسد آذانها وتغمض عينيها حتى لاتتسع رقعة هذه المكائد ، وظلت طول حياتها تطفىء كل فتنة ، وهى تقول ان أصغر شرارة تكفى لحرق بطرسبرج وتحويلها الى كومة من الرماد

وكان أدهى المطالبين بالعرش فى عهد كاترين ، الاميرة « تراكنوفا » بنت الاميرة العزباء اليزابث ، كانت آية فى الجمال ، غاية فى الرشاقة وزلاقة اللسان وسرعة الخاطر ، مغامرة التف حولها رهط من العشاق الاجانب ، من طليان والمان واتراك . وكانت ملمة بأكثر لغات أوروبا ، متصلة بأرقى الاوساط الاوستقراطية الاجتماعية فى لندن وباريس . ولم تكف عن الكيد الجالسة على العرش الا بعد ان اغواها احد رجال كاترين ، زاعما انه يعشقها ، وحبسها فى قلعة القديسين بطرس وبولس ، الى ان ماتت بالسل بعد أن كتبت عشرات الرسائل تستعطف فيها الامبراطورة.
وبلغ عدد المطالبين بالعرش رقما خياليا ، فاضطرت الى نفيهم الى سيبيريا بعد تحقيرهم وعرضهم فى الشوارع ، وكان منهم كبير أساقفة روستوف أشد اعدائها قسوة

وقد تعرضت لمشكلة أخرى اجتماعية لم يكن فى وسعها التغلب عليها ـ تلك كانت مشكلة الاشراف الذين كانوا يعاملون الفلاحين معاملة العبيد والخدم ، وقد كانوا كبطرس الاكبر يجوبون أوروبا ويتصلون بثقافاتها . ومع ذلك لم ينتفعوا بمبدأ الانسانيين « Humanitarianism » الذى كان منتشرا فى ذلك العصر
فقد كانت أوروبا مسرحا لآراء جديدة فى حرية الفرد ، بدات أولا فى ايطاليا باسم عصر النهضة العلمية، وثانيا فى المانيا باسم الاصلاح الدينى. ثم انقلبت فى انجلترا الى ثورة اجتماعية سياسية ، تجمعت



فرانز جوزيف



فولتير

مبادؤها فى كتابات كل من هوبز ، ولوك ، ثم فى مؤلفات فولتير وسائر الكتاب الفرنسيين الذين حملوا حملة شعواء على بقايا الاقطاع ، وتعصب الكنيسة الكاثوليكية تحت اشراف الآباء اليسوعيين (الجزويت)

وقد كانت كاترين من اكبر انصار هذه الآراء ، بل انها تتلمذت فى ثقافتها على هؤلاء الانسانيين . ومع ذلك كانت مغلولة اليدين . أليست غريبة عن روسيا ، دخيلة عليها؟ فانى لها أن تتحكم فى الاشراف ؟ وفضلا عن ذلك فان هذه الآراء وحرية الفرد التى آلت الى الثورة الفرنسية، لم تكن بعد قد تبلورت فى أوروبا ، فقد كان حكامها لا يزالون يباهون بالهوة الثقافية العميقة التى كانت تفصلهم عن الرعايا ، وكان يطلق على حكمهم الاسم التاريخى المشهور « الحكم الاستبدادى الاربحى » «Benevolent despotism» . ومن امثال هؤلاء فردريك الاكبر (١٧٤٠ – ١٧٨٦) فى بروسيا ، وجوزيف الثانى امبراطور النمسا (١٧٦٥ – ١٧٩٠) ، وشارلس ملك نابولى (١٧٣٥ – ١٧٥٩)

الف باء السياسة

فى مقدمة جهودها الاصلاحية التى تشهد لها بالبراعة الادارية أنها أصدرت مجموعة من القوانين فريدة فى بابها سمتها « نكاز » وهى كلمة روسية معناها التعليم ، تتألف من ٥٠٠ مادة جريئة ، اشار عليها مستشاروها بتخفيفها الى النصف

وقد اقتبست كاترين شطرا كبيرا منها ، من مؤلف مونتسكيو الشهير « روح القوانين » (Esprit de lois) وكتاب « الجرائم والعقوبات » لبكاريا . أما بقية المواد فكانت من

مبتكراتها . والى القارىء نماذج من هذه المواد ، التى استهلتها فى المادة الاولى بقولها « تعلمنا المسيحية ان نحسن معاملة بعضنا البعض » : —

« العدالة لا يقصد بها توقيع العقوبة بقدر ما يقصد بها منع الجريمة » . « وظيفة الملوك والاباطرة ان يكونوا خداما للرعايا » . « معنى الحرية اطلاق العنان للشعب للقيام بكل ما لايحرمه القانون» . «العبودية لا يسمح بها بتاتا الا اذا كانت لازمة لكيان الدولة » . « من الخطر تحرير العبيد مرة واحدة » . « العبودية لا مبرر لها ، الا لصالح الزراعة »

وقالت كاترين عن هذه المجموعة انها الف باء السياسة ، على ان فرنسا منعت نشرها ، وذلك بعكس فردريك الاكبر الذى لم تكد تصله النسخة المهداة اليه من كاترين ، حتى جعلها عضو شرف فى مجمع برلين العلمى (الاكاديمية) .

ومن اصلاحاتها انها انشأت مجلسا نيابيا مكونا من ٥٦٤ عضوا من جميع انحاء روسيا لبحث مطالب ناخبيهم . وكان يحكم بالغرامة على كل من يسىء قولا او فعلا الى صغار الفلاحين . وظل المجلس ١٨ شهرا ، مسرحا للمساجلات والمناقشات لصالح الدولة وعامة الشعب ، بالرغم من معارضة الاشراف واحتجاجاتهم ، ولم يعطل جلساته سوى قيام الحرب التركية سنة ١٧٦٨

وقد نجحت كاترين علاوة على هذا فى ادخال الكثير من التعديلات الادارية ، التى اصبحت نواة للحكم الذاتى المحلى واللامركزية ، وقد الغت الاجراءات والقوانين المجحفة بحقوق الشعب ، واهتمت باصلاح الطرق والمواصلات البرية والنهرية ، ومشروعات الرى ، وانشاء المستشفيات الكبرى فى موسكو وبطرسبرج ، وانشأت كلية الطب ، وقدمت نفسها للطبيب لحقنها ضد الجدرى ، حتى ينسج على منوالها افراد الشعب . بيد أن الكثير من مشروعاتها الاصلاحية بقى حبرا على ورق ، مثال ذلك انها الغت الرقيق سنة ١٧٧١ واضطرت الى اعادته سنة ١٧٧٣ . وكان العبيد يوثقون بالسلاسل ويجلدون لاوهى الاسباب ومن امثال ذلك ان العبد كان عقابه ٥٠٠ جلدة ، اذا تغيب عن تناول العشاء الربانى فى الكنيسة

وبالرغم من هضم الاشراف للثقافة الاوربية ، فان معاهد التعليم الروسية قد اصبحت بسبب مغالاتهم دورا الترف ، يتلقون فيها الوانا من الرقص والتمثيل وسائر الفنون الجميلة . ومع المامهم بمؤلفات روسو وغيره من « الانسانيين » ، فقد كانوا لا يتورعون عن توقيع العقوبات الاليمة على عبيدهم لمجرد التسلية . وقد عانت كاترين فى صدهم عن غيهم اشد المتاعب والواقع انها جاوزت فى اصلاحاتها ونشاطها السياسى ، والزحف بروسيا غربا الى اوروبا ، ما انجزه بطرس الاكبر من الاعمال الجبارة الباهرة ، لاسيما فيما يتعلق بالدور الخطير الذى

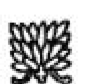
قامت به فى تقسيم بولاندا، بالاشتراك مع فردريك الاكبر البروسى وماريا تيريزا امبراطورة النمسا ، مما اتسعت به رقعة روسيا وامتدت حدودها حتى اخترقت قلب أوروبا الوسطى . ولئن كان بطرس الاكبر قد انشأ بطرسبرج لتكون نافذة تطل بها روسيا على أوروبا ، فان المساحة الكبيرة التى اقتطعتها كاترين من بولندا ، اصبحت منفذا تتسلل منه روسيا الى أوروبا الوسطى بغير استئذان

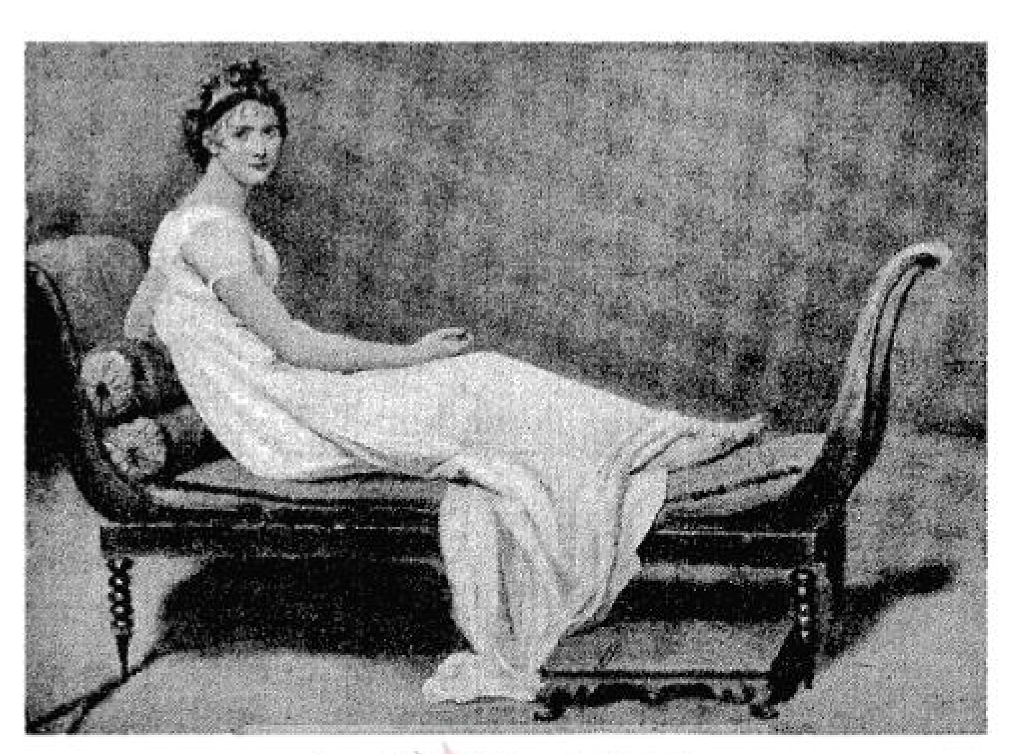
خيبة أمل

ثم وقعت الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ ففتحت بابا جديدا فى تاريخ روسيا . ويتضح من الفقرات السالفة ان فرنسا بثقافتها وحضارتها الرفيعة كانت المثل الاعلى لاشراف روسيا ، وكانت بالنسبة لكاترين بالذات حصنا منيعا تحتمى وراءه ، كلما أدخلت قوانين أو مشروعات تقدمية . ولكن ماكادت تبلغ مسامعها حوادث الثورة الفرنسية حتى استولى عليها وعلى الاشراف الذهول والسخط والاشمئزاز اذ كيف يسوغ لشعب ان يرغم الملك على الرضوخ لاوامره ويتنازل عن حقوقه الشرعية ؟ واستشاط غضبها عند سقوط الباستيل ، وذعرت لاعدام لويس السادس عشر ومارى انطوانيت ومرضت ، وجن جنونها لالغاء الالقاب ، وتساءلت عما عساه أن يحدث لاوروبا اذا ما حذت دولها حذو فرنسا . واصدرت أوامرها بتحريم الكتب الفرنسية واعلان الرقابة على المطبوعات . واصبحت أوروبا كلها فى نظرها الثورة الفرنسية ، فأوصدت أبواب روسيا التى تؤدى اليها ، بعد أن كان همها توسيع هذه الابواب وزيادة عددها

ولولا تقطيع أوصال بولندا ، والقرصنة التى شاركها فيها فردريك رغم احتجاج ماريا تريزا ، فى تقسيم تلك الدولة المسكينة ، ولولا حياتها الشخصية التى كانت لاتخلو من الفجور والاستهتار ، ومصاحبة صغار الضباط ورجال الحاشية ، والانغماس معهم فى شتى الملاذ الحيوانية ومعاقرة بنت الحان — لولا ذلك لكتب لها التاريخ فى صفحاته آيات بينات

ومع ذلك فقد ظلت تتوج رأسها هالة من العظمة والجلال والجمال . والحصافة وقوة الارادة وصلابة الشكيمة ، الى أن قضت نحبها فى ١٧ من نوفمبر سنة ١٧٩٦ وهى السنة التى ذاق فيها نابوليون أولى انتصاراته الحربية فى ايطاليا





مدام ريكامييه ... للفنان جاك لويس دافيد

مدام ريكامييه
فاتنة خدمت الأدب والسياسة

لم يكن الاب الطبيب يقدر لابنته ذلك المستقبل العظيم، ولم يكن يدور فى خلده أنها ستبلغ فى عالمى السياسة والادب ذلك الشأو الجليل

كان اسمها برنار ، وكانت وهى فتاة ، رائعة الحسن ، فتانة الجمال ، رشيقة القوام ، ساحرة اللحاظ ، وعلى الرغم من هذه الفتنة الصارخة التى ينبض بها هذا الجسم الغض الرشيق ، فقد ظل ابوها لا يرجو أن تجد ابنته لنفسها الا زوجا من طبقته المتوسطة

بيد أن جمالها كان اخاذا فلم تكد انظار جاك ريكامييه تقع عليها حتى فتن بها ، وسحر بلطف دلها وتقدم اليها رغم سنه الكبيرة ، ورغم أنه فى عمر أبيها أو يزيد ، ولكنه كان متذرعا بسلاح قوى جبار ، هو سلاح المال ، فقد كان جاك ريكامييه احد رجال المال والمصارف

وتم زواجها منه وهى لا تنفك فى الخامسة عشرة من عمرها ، ومنذ ذلك الحين عرفت باسم مدام

ريكامييه

وكانت متوقدة الذكاء ، شديدة الطموح ، واستطاعت بجهودها الفردية أن تنال قسطا وافرا من الثقافة ، وأن تطالع الكثير من كتب الادب

وأتاح لها ثراء زوجها أن تقيم فى دارها صالونا لرجال الادب والسياسة ، يؤمونه ويحومون حولها، فكانت بينهم كالكوكب المتألق ، والنجم الساطع ، وتتنقل بينهم كما تتنقل الفراشة ذات الالوان الجميلة ، والعيون محدقة بها ، تكاد تلتهمها

وكان حسب زوجها انه اقتناها فى داره ، كما يقتنى الرجل الثرى التحف النادرة والقطع الفنية الرائعة يزين بها داره ، ويفخر باقتنائها امام أصدقائه والمترددين عليه

كان زوجها يعرف أن زوجته فتاتة ساحرة فى حسنها ، وأنها مطمع لاولئك الرجال الذين يترددون عليها ، وأن من بينهم رجالا عظماء فى عالم السياسة ، وآخرين فحولا مبرزين فى عالم الادب ، والى جانب هذا فمن أولئك وهؤلاء شبان فى ريعان الشباب ، يمتازون عنه بنضرة الصبا ، ووسامة الوجه ، وسحر الحديث

ويذكر المؤرخون انه كان لها عشاق كثيرون كان من ابرزهم ماتيودى مونتمورنسى ، ولوسيان بونابرت والبرنس أوجستاس البروسى وبالانش وامبير وكونستان وشاتوبريان وبروسبار دى بارانت، غير ان الذى فاز بنصيب الاسد منها هو الفيكونت فرنسوا رينيه شاتوبريان ، وهو مؤلف فرنسى يعد من أكبر ادباء فرنسا ، وكان يكبرها بتسع سنوات اذ كان مولده فى عام ١٨٦٨ ، وكان مولدها فى عام ١٨٧٧، وكان فى بداية عهده يناهض الآراء التى كانت سائدة خلال الثورة الفرنسية

ابنة طبيب متوسط الحال ، رفعها جمالها الى ذروة المجد والشهرة ، فعشقت الادب والادباء .. واشتغلت بالسياسة ..

وما كان شاتوبريان محبا مخلصا بل كان خائنا للعهود ، متقلبا فى أهوائه.

احب أول ما احب بولين دى مونت بعد أن تردد على صالونها ، وتبادلا الحب والغرام فترة طويلة من الزمن ، وكانت بولين تعاونه فى حياته الادبية والسياسية، وساعدته فى اخراج اول كتبه ، وكان عنوانه (عطا الله : غرام بدويين فى الصحراء)

فهل كان شاتوبريان مخلصا لها ، وفيا فى حبه وغرامه ؟ لم يكن الاخلاص فى خلقه ، بل كان نزاعا الى اللهو والى التقلب فى حبه

بيد أن المرأة الوحيدة التى ظفرت بقلبه واحترامه ، كانت هى مدام ريكامييه ، وقد وضح حبه لها وتقديره واعجابه واحترامه فى

مذكراته التى طبعت بعد عام من وفاته ، وكان عنوانها « مذكرات من العالم الآخر »

وهل كانت مدام ريكامييه مخلصة ، هى الاخرى ، فى عشقها وحبها ؟

ان كثرة عدد عشاقها يدل على انها لم تكن تعرف الاخلاص بمعناه الصحيح . انها امرأة تزوجت رجلا فى عمر أبيها او يزيد من أجل ثرائه الطائل ، ولم تكن تشعر نحوه بحب ، ولكنها اتخذته اداة لاهوائها واغراضها ، واستخدمت امواله فى تحقيق اهدافها ، فانفقت بسخاء ، وافتتحت صالونها الادبى السياسى ، وهى عادة شائعة فى فرنسا ، وخاصة فى العصور الماضية . وهذه الصالونات مجدية بلا ريب ، فهى مجتمع عظيم تحل فيه اعقد المشاكل السياسية ، ويتبادل مرتادوها الرأى فى كثير من المعضلات ، غير انها مجتمع يضم النساء والرجال فى صعيد واحد ، والانسان هو الانسان فى كل زمان ومكان ، وليس من المعقول أن يرى الشاب الاديب المتأجج العاطفة امرأة ذات حسن فتان ، ويستطيع أن يقاوم هذا السحر الطاغى

وقد لعب جمال مدام ريكامييه دورا عظيما فى مثل هذه المجتمعات ، فسجد الكثيرون تحت اقدامها ، وحاموا حولها كالفراش ، وراحت هى تنتقى وتختار من يروق فى نظرها من هؤلاء العشاق ، فاختارت من اسلفنا ذكرهم واحدا بعد واحد ، لترتوى من مناهل الحب بالقدر الذى تريده لنفسها ، وبالقدر الذى تتعطش اليه

ولقد كان صالونها يعج برجال السياسة وخاصة انصار الملكية ، وكانت هى تناهض سياسة نابليون بونابرت ، وبلغ من شدة وطأتها أن أصدر نابليون امرا بنفيها من فرنسا ، فرحلت من باريس الى مدينة ليون ومكثت فيها فترة قصيرة ، ثم تابعت رحلتها حتى وصلت الى مدينة روما عاصمة ايطاليا ، واخيراً وصلت الى مدينة نابلى

وفى نابلى اتصلت بالجنرال مورو وزوجته ، وبداوا جميعا يتآمرون مع آل بوربون لعودة الملكية

وقد استطاعت أن تحمل كونستان أحد كبار الساسة الفرنسيين بقوة شخصيتها وسحر جمالها على أن يدافع عن طلبات مورو المقدمة الى مؤتمر فينا الذى عقد بعد المائة يوم التى استولى خلالها نابليون على الحكم بعد عودته من جزيرة البا

وكان زوجها عام ١٨٠٥ قد نكب بخسائر مالية فادحة اتت على ثروته ، بيد أن زوجته ظلت تفتح أبواب دارها للوافدين عليها

وكان شاتوبريان هو الذى ظل يلازمها فى تلك الايام ، ويتردد على دارها ، وكان فى الواقع هو سيد الدار وحاكمها

وقد ظلت مدام ريكامييه على علاقتها الغرامية بهذا الرجل رغم تعسفه وجبروته وعنفه ، فقد كانت

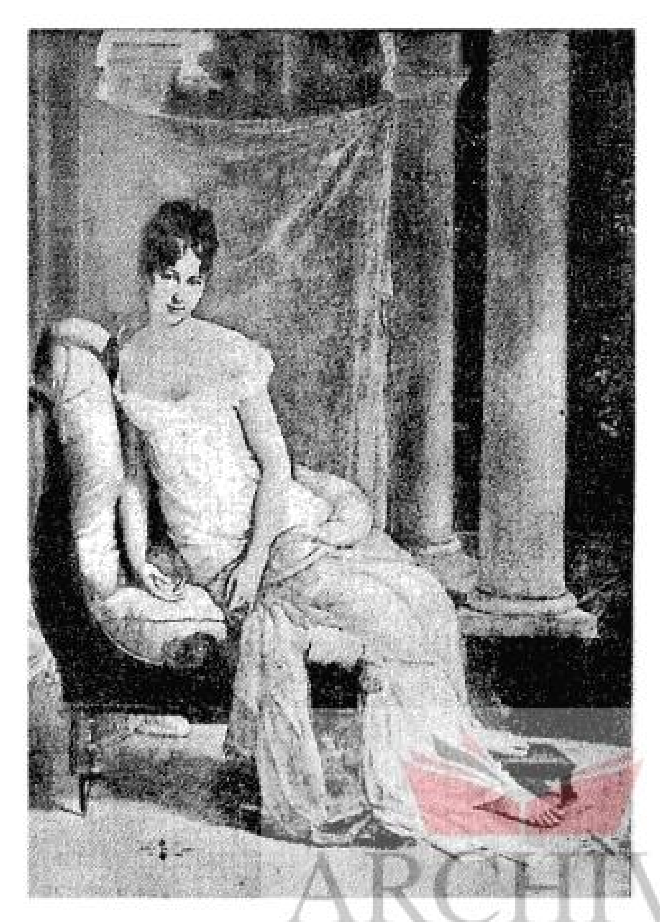
تحس انه يحبهـا من اعماق قلبه ، وانه لا يستطيع هجرانهـا ، وكانت هي من ناحيتها قد تقدمت بها السن ، وبلغت خريف حياتها ، وان كانت قد ظلت رغم ذلك محتفظة بحسنها الوضيء ، وجمالهـا الساحر ، وانوثتها الطافية الفوارة

وفي عام ١٨١٤ دخلت الدير ، وكان شاتوبريان يلازمها ملازمة الظل اينما ذهبت

ولما مرض مرضه الاخير كانت مدام ريكاميه هي التي بقيت الى جانبه تسهر عليه ، وتقوم بخدمته رغم فقدانها البصر حتى لفظ انفاسه الاخيرة عام ١٨٤٨ ، فتولت هي ، دون كل أصدقائه ومعارفه ، اقامة جنازته ودفنه

وقضت مدام ريكاميه نحبها بعد عام واحد من وفاته ، اذ انها ماتت عام ١٨٤٩

وقد جرت العادة في تلك العصور ان يقبل فحول الرسامين على رسم النساء الفاتنات ذوات الشهرة والمكانة سواء في عالم الادب أو السياسة او الغنى والثراء أو الحب والغرام . وقد جمعت مدام ريكاميه بين كل هذا ، اذ كانت لهـا مكانة عظيمة في عالمي الادب والسياسة وفي دنيا المال والغرام . وقد قام بتصويرها لويس دافيد ، والصور التي رسمها بريشته لهذه السيدة لا تزال موجودة في متحف اللوفر ، كذلك قام المصور الفنان فرنسوا جيرار برسمها ، وصورها موجودة في قصر حاكم مقاطعة السين



مدام ريكاميه ... للرسام فرانسوا جيرار



السيد صلاح الدين السلجوقي





السيد فتحي رضوان



تأليف الاستاذ فتحي رضوان

نقد وتحليل للسيد صلاح الدين السلجوقي

سفير الافغان فى الجمهورية العربية المتحدة

انها قصة من طراز « فاوست » للفليسوف الخالد « غوته » ولكنها مجازية Allegorical ، وهي تمثل حياة الفن من المهد الى اللحد فالفن هو العطسة الاولى لحياة الشعور ، والرائد الاول الى الميتافيزيقا ، وممهد السبيل الى التكامل

ان « السيد »فى المسرحية ، عبارة عن غريزة الابوة التى هى الحجر الاساسي للامر والانقياد ، والتي اخذت الزمام من يد غريزة الامومة التى كانت الداعية الى العطف والحنان والتى تمثلت فى « هالة » سيدة البيت

فمن غريزة الابوة : الامر والانقياد أعنى « الحكم » . ومن غريزة الامومة ، أعنى اللطف والحنان ، ولدت النظم الاجتماعية الانسانية التى تطير بجناحين : جناح الحكم القوى ،

وجناح الذل من الرحمة والعطف ، وهي (أعني النظم الاجتماعيـــة) تتمثل في « عصـــماء » التي كانت تتلطف وتعظ وتحكم ، والتي تقود الى المدينة الفاضلة الامنـــة الوادعة التي لا حركة فيها ولا نهوض

لقد كان هناك مسيس احتيـــاج الى محرك يقود المدينـــة النبيـــلة الشريفة الى الامام . فجاء الشيطان ممثلا في غريزة الجنس . فالغريزة الجنســـية ، بطبيعة حالها ، موهبة من مواهب الله تعالى . انها ينبوع الحب الذي هو « ولي الله » . ولكنها تكون في بعض الاحيان وكرا للشيطان ايضا

يقول شاعرنا : « يقـــولون ان في الشعر المجعد يستوطن الشيطان ، ولكنك يا شـــعر حبيبتي ، انك انت الشيطان بنفســـه » . ويقول ارسطوفي صدد المقارنة بين الحب والغضب : ان في الحب لغا ودورانا وكتمانا اكثر من الغضب . ففي الحب مكر وحيـــلة وخديعة وتضليل (او تدليـــــل) ويـــتشـــهد ارسطو بقول « هوميروس » ان حزام الحب للفتاة القبرصـــية (اعني الزهرة VENUS) هو وعق (وهو حبل يستخدم في الحرب القنص) لا مناص منه . حتي لاعقل الناس »

فمن هذه المدينة الفاضلة ، ومن الغريزة الجنسية ، ولد الفن . فالفن من جهة امه ، أول زهرة انبعث في ربيع شعور الانسان حينما صـــار انسانا . وهو ، من جهة ابيه ، تصعيد وتسام للغريزة الجنسية التي تمثل الشيطان احيانا . ولنا ثلاث غرائـــز أورثت لنا العلوم والفنون . فغريزة الجنس تسامت الى الفنون النفيسة ، كما ان غريزة جلب النفع صعدت الى العلوم الاستقرائية ، وكذلك تسامت غريزة دفع الضرر الى فنون الحرب وانواع المباريات

وفي مســرحية « دموع أبليس » ، تقول « عصماء » للشيطان ان ابنك الذي هو الآن جنين في احشـــائي - سيكون محفوظا من كيد الشياطين ولا يمكن لك ولا لجندك ان تؤثـــر فيه . ونعم القول قولها . . وهاانذا اشرح ما تقول

يقول سقراط ان للحقيقة المطلقة ثلاثة مظاهر ، هي الحق والخـــير والجميل . فالحق الذي يقابله الباطل وهو موضوع علم المنطق ، وبدركه

في احدى المقابلات التي جرت بين السيد صلاح الدين السلجوقي سفير افغانستان بالجمهورية العربية المتحدة ، وبين سيادة الاستاذ فتحي رضوان وزير الارشاد القومي ، للبحث في تقوية الروابط الثقافية والفنية بين افغانستان والجمهورية العربية المتحدة اهدى السيد الوزير الى السيد السفير نسخة من مسرحيته الشائقة : « دموع ابليس » ، وقد طالع السيد السفير هذه المسرحية بامعان وبعث الى مجلة « الهـــلال » بالتعليق التالي عليها :

العقل، يمكن للشيطان ان يوسوس فيه

والخير الذي يقابله الشر ، وهو موضوع علم الاخلاق ، ويفهمه الشعور الذي نسميه التمييز يمكن للشيطان ايضا ان يلقي التردد والشك في كون السلوك خيرا او شرا . ولكن الجميل الذي هو موضوع علم الجمال يستند اصلا على التخيل ، ويدرك بالشعور الذي يسميه العلامة شفتسبري «حسا» وليس للشيطان سبيل الى التخيل ، ولا الى الحس ، ولا الى المشاهدة ، ولو كان له — اي الشيطان — عرق عريق في كل واحدة منها

فالفن لن يكون مجالا للحق او الباطل ، للخير او الشر . وليس للشيطان مجال كي يدس انفه فيه . نعم ان الفن تدخل فيه شائبة من «الساديزم» الذي يتمثل في هذه المسرحية الى حد قليل في «ساهر» ، كما يصيبه مس من «الماسوكزم» الذي يرى شيء ضئيل منه في «ام السعد »

و«شاهر» يلعب في المسرحية دورا هاما لانه يمثل «الحياد» في الحب وفي الفن . يقول ارسطو ان الفن والجمال ينبغي ان يكونا محايدين بالنسبة للغريزة الجنسية لان الفن بطبيعة حاله هو تصعيد وتسام لهذه الغريزة ، ولاينبغي ان يتقهقر الى الوراء . فالحياد للجمال ولجمال الفن هو الحجر الاساسي ، كما قرر ارسطو وكما ايده «بامجارتن» و «وتكلمان» الذي اطلق على علم الجمال اسم « ايستتكس » «Aesthetica»

فالفن الذي ولد من الغريزة الجنسية التي فيها نزعة من الشيطان ، يمكن ان يسمى ابن الشيطان . ولكنه بعدما ولد ، القي في المعبد ، وعمد ، وتهذب . وسلك وتنسك . وهناك صار الركن اليماني للكعبة العبادة ، والتناجي والابتهال الى الله . فليس بعيدا في هذه الحالة ان نسميه الناسك

نعم .. ان الانسان اول من اتصل بربه ، عبده وناجاه وناداه عن طريق الفن . فالشعر والموسيقى والرقص والبناء والهياكل كلها كانت من وسائل العبادة . فالمزامير والشعر وسائر شعب الفن كانت لها اشارات غامضة الى الحق المطلق ، كما يقول «غوته» وكما يقول جلال الدين الرومي ، وكانت لها اشارات واضحة الى الخير والجمال : الخير للبشر كافة ، وحتى كما يقول افلاطون ، لجميع الكائنات ان الجمال بسط جناحيه على الافاق ، فليس هناك شيء قبيح في العالم . نعم لا شر ولا قبح حقيقيان لا في الكون ولا في الفن ، ولا في نظر الفنان الحقيقي

لقد كان الشر قبل الاسلام وعند الثنويين ضدا وندا مساويا للخير . وكان هناك شر بالذات . كما كان هناك خير بالذات . و«اهريمن» عند زرادشت الثنوي . كان متعادلا بالقوة مع «يزدان» . ولكن عندما جاء الاسلام بمبدأ التوحيد ، صار الخير خيرا بالذات ، والشر شرا بالعرض . فالشيطان او «اهريمن» ليس شرا بالذات ، لان الشيطان قبل ان يعصى ربه كان معلما للملكوت ، ولكن عندما

وضع نفسه فى غير موضعه صار شرا . فمثلا النار فى موضعها فى الموقد تكون خيرا ، ولكن فى غير موضعها ، فى الموقد تكون شرا

و«حواء» حينما حاولت أن تغرى الفن، أو ابن الشيطان ، لم يكن اغراؤها مجديا لاننا كما قلنا وكما قالت «عصماء» - ان الشيطان لا يستطيع أن يتدخل فى التخيل او الحس، بل بالعكس ، لقد استسلمت حواء على يد الناصح وهذا مطابق لما يروى عن النبى عليه الصلاة والسلام عندما قال : «أسلم شيطانى على يدى»

وفى مسرحية « دموع ابليس » عندما حاول « السيد » ان يشرح الواقع للفن أو ابن الشيطان، فمعنى ذلك أن هناك كانت محاولة لدخول الواقعية فى الفن . ولكن لما لم يكن من الطبيعى ان يكون لفن واقعيا ، فانه لم يستطع ان يفعل ذلك . فالفن ليس واقعيا كما زعم البعض ، بل هو مثالى . وليس هو بتقليد الطبيعة ، كما زعم أرسطو ، بل الفن هو نقد للحياة ، ومحاولة خلق عالم اكثر ملاءمة للفنان ، بل وللاجيال المقبلة

ان الانسان ، كما يقول شوبنهاور حيوان ميتافيزيقى ، نبتت فكرة الميتافيزيقية من صميم حياته وشعوره . وأول حلقة وصل وجدت بين الانسان وبين تخيلاته السماوية، كانت الفن الذى بنى المعبد ، وتناجى مع الرب ، وتواصى مع الناس بالخير . وكان الفن حظيرة محفوظة ، وأرضا حراما آمنة لا رفث فيها ،ولا فسوق ولا جدال

وما كان للشيطان ان يدس فيها اويوسوس . كان الجمال محرابه ، والحب صلاته ، والطهر ضوءه . وما من شيطان ولا شيطانة تسربا اليه الا وآمنا به . فما اضره الشيطان ، ولا «الساديزم» ، ولا «الماسوكيزم» ولا الواقعية،وكان يعيش فتيا مرفوع الراس ، يدعو الى الرشد والهدى. ولكن الذى أوقع وفتك به ، وختم على حياته ، كان الذهب . ذهب التجارة الذى قتل الفن فى هوليوود وهنا وهناك وفى كل مكان . لان مال التجارة يخرج من معامل بلاد ترقب السوق وتبغى الثمن بأى ثمن. ولكن الفن ينزل من معالم سماء تخلق الوعى وتجلب المجد والكرامة . وشتان بين التجارة والفن

وكذلك اشتروا الفن بثمن بخس دراهم معدودة

وهكذا كانت حياة الفن من المهد الى اللحد ، مثل ما يقولون أن الموسيقى ولدت فى ايطاليا ، وحينما راحت الى المانيا تفتقت واكتملت ، وبعدئذ سافرت الى انجلترا حيث مرضت ولما وصلت الى أمريكا ماتت هناك !

«فدموع ابليس» تنبع من خيبته فى امله .. لقد كان يأمل أن يتخذ من الغريزة الجنسية والفن عشا يبيض فيه ويفقس .. ولكن عندما رأى ان هذا العش يسمو عن متناوله ويحاول ان يأخذ مكانه فى أغصان سدرة المنتهى : يئس وحاول أن يخرب هذا العش ويقضى على الافراخ وان يبكى من الاسى والحزن